# الباب الثانى

## القيم فى التصور الإسلامى

# (١)
# القيم ومتغيرات العصر

تُعَدُّ القيمُ فى كل مجتمع معاييرَ للسلوك الإنسانى . والمجتمع المتوازن هو ذلك المجتمع الذى ينتشر فيه الوعى بالقيم ، ومن ثم الالتزام بها . ويرتبط بازدياد الوعى بالقيم والإحساس بها مفاهيم التقدم والتفاؤل والنظام والترابط .

والأمر الذى لا جدال فيه أن الإنسان لا يستطيع أن يعيش فى مجتمع دون قيم تحكم سلوكه على المستوى الفردى والاجتماعى ، بل وتحكم سلوكه إزاء الكائنات جميعاً . وهذا يؤكد أن الإنسان يُعَدُّ كائناً أخلاقيًا لديه بالفطرة ضمير يُلزمه بالسلوك الأخلاقى ، باستثناء من فسدت فطرتهم وصَمُّوا آذانهم وعقولهم عن صوت الضمير . فهؤلاء من الشواذِّ الذين لا يمثلون النوع الإنسانى ، ولا يؤثر وجودهم فى جعلنا نفقد ثقتنا فى الإنسان الذى خلقه الله فى أحسن تقويم من الناحيتين المادية والمعنوية .

ومن الحقائق الواضحة أن منظومة القيم الأخلاقية لها جذورها الضاربة فى أعماق النفس البشرية لدى الشعوب المختلفة منذ آدم حتى

يومنا هذا وإلى أن تقوم الساعة . فلا خلاف على أن الصدق والأمانة والعدل والإحسان إلى الوالدين من الفضائل التى ينبغى على الإنسان أن يلتزم بها ، وأن ما يقابلها من الكذب والخيانة والظلم وعقوق الوالدين من الرذائل التى ينبغى على الإنسان أن ينأى بنفسه عنها .

وهـذا إن دل على شـىء فإنما يـدل على ثبـات القيـم رغـم اختلاف تصورات الأجيال فى النظر إليها . ولكنَّ هناك - بجانب القيم الثابتة المطلقة - قيماً أخرى متغيرة ، وهى القيم التى تكون وسيلة لغاية وراءها . فقيمة السيارة مثلاً مرهونة بما تؤديه من خدمات ، والمال لا تكون له قيمة إلا من حيث هو وسيلة لكثير من الأمور المرغوب فيها فى الحياة . ومن هنا ينبغى التفريق بين القيم المطلقة والقيم النسبية أو الوسيلية ، حتى لا تختلط الأمور وتضيع منا معالم الطريق وينقلب هرم الأولويَّات .

وقد طرأت على المجتمعات البشرية المعاصرة تغيُّرات كثيرة ومستجدَّات عديدة فى كل المجالات كان لها تأثيرها المباشر وغير المباشر على سلوك الأفراد والجماعات سلباً أو إيجاباً . ولا شك فى أن الكثير من هذه المتغيُّرات قد أحدث الكثير من الاهتزاز فى القيم . فقد تغيَّرت النظرة إلى القيم ، وبخاصة من جانب الأجيال الجديدة التى تُبدى تمرُّداً على الكثير من عادات المجتمع وتقاليده وقيمه . وهذه ظاهرة عامة لا تقتصر على مجتمع دون آخر . وعادة ما ينظر الجيل

الجديد إلى أفكار الجيل القديم وتصوُّراته على أنها تصوُّرات قديمة متخلِّفة لم تَعُدْ تلائم العصر ، ولا تتفق مع المتغيِّرات الجديدة والمستجدَّات التى طرأت على حياة الأفراد والجماعات .

ومن هنا تنطلق الشكوى من جانب الجيل القديم - حتى فى أكثر المجتمعات تقدُّماً - من اهتزاز القيم ، وحاجة الإنسان المعاصر إلى الإحساس بالقيم ، وافتقار الأجيال الجديدة إلى العمق والجدية فى نظرتها إلى الحياة والأحياء مما أدى إلى افتقاد القدرة لديها على إدراك القيم الحقيقية للناس والأشياء . ويرتبط بقلة الإحساس بالقيم ظواهر اليأس والإحباط والتشاؤم والتحلل من القيود الاجتماعية .

ولكن لا ينبغى أن نضيق ذرعاً بما يبدو من مظاهر التمرُّد لدى الأجيال الجديدة فى نظرتها إلى القيم ، فهى فى حاجة إلى أن ترى القيم التى يتحدث عنها الجيل القديم تتجاوز مرحلة الكلام إلى مرحلة العمل . فالجيل الجديد فى حاجة إلى نماذج يسترشد بها وقدوة يتأسَّى بها. وما يجعله يتمرد على دروس الأخلاق من الجيل القديم هو الانفصام بين القول والفعل . فلا يجوز - مثلاً - أن أحذِّر ابنى من مضارِّ التدخين وأنا أدخِّن ، ولا يجوز أن أطلب منه الصدق وهو يرى أننى لست صادقاً فى كل الأحوال فيما أقول وأفعل ، وهكذا فى بقية القيم .

والاهتزاز فى القيم الذى طرأ على مجتمعاتنا يرجع من ناحية إلى المتغيِّرات التى طرأت على حياة المجتمع ، ولكنه فى جانب كبير منه يرجع إلى افتقاد الجيل الجديد للقدوة والنموذج فى البيت والمدرسة والعمل والنادى .... إلخ . ونحن فى أشد الحاجة إلى فهم المتغيِّرات الاجتماعية ، وطموحات واهتمامات الأجيال الجديدة حتى نكون أكثر قرباً منها ، وبالتالى نكون أقدر على مساعدتها .

لقد درجنا فى جيلنا القديم - على سبيل المثال - على تقبيل يد والدينا كل صباح ، وعدم الجلوس أمامهم إلا إذا سمحا لنا بذلك ، وعدم السهر خارج البيت ، وعدم الخروج على أوامرهما ونواهيهما ، وغير ذلك من عادات لم تَعُدْ قائمة فى حياتنا ، ومن الصعب أن نقف فى وجه هذه المتغيِّرات . ولكن الذى ينبغى التأكيد عليه هو قيمة الاحترام للإنسان من حيث هو إنسان ، وهذا الاحترام يجب أن يكون متبادلاً وليس من جانب واحد وإلا كان خضوعاً وخنوعاً من جانب طرف لحساب الطرف الآخر وهذا لا يليق بكرامة الإنسان .

إننا فى حاجة إلى غرس قيم الاحترام والثقة بالنفس والاعتزاز بالكرامة الإنسانية فى الجيل الجديد . فقد خُلِقَ أبناؤه لزمان غير زماننا ، وهذا ما ينبغى أن ندركه جيداً وإلا أخطأنا الطريق فى تربية الجيل الجديد . وهذا خطأ إن وقع ستتحمل الأجيال الجديدة وزره . وسنكون نحن مسئولين عن ذلك . ومن هنا فإن واجبنا أن نرشدهم إلى

الطريق الصحيح ، ونبيِّن لهم مخاطر الطريق ، وعليهم أن يشقُّوا طريقهم بأنفسهم ، وقد يتعثرون ، ولكنهم حتماً سينهضون مرة أخرى ليواصلوا السير على الدرب . وهكذا تتواصل الأجيال وتستمر الحياة إلى حيث أراد الله .

* * *

## (٢)
# فطرية القيم

عندما نتحدث عن القيم فإننا لا نتحدث عن شيء جديد طارئ على البشرية ، غريب على تفكيرها . فالقيم قديمة قِدَم الإنسان ذاته ، ولكنها لم تتبلور فى الأذهان وتتضح معالمها على مدى التاريخ البشرى إلا بالتدريج من خلال الخبرات والتجارب الحياتية ودرجة الوعى الفردى والاجتماعى . والدارسون للأديان يعرفون أن كلاً منها قد دعا إلى القيم بصورة من الصور ، وحث على التمسك بها والالتزام بالأخلاق الفاضلة والصفات الحميدة . وقد صوَّر النبى - عليه الصلاة والسلام - بعثته بأنها استكمال للقيم الأخلاقية بقوله :

«إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلَاقِ» (١) .

ولكن الأمر الجدير بالتأمل والاعتبار أن مصر - صاحبة الحضارة العريقة - قد عرفت القيم بصورة واضحة تماماً قبل أن تعرف تعاليم

(١) رواه البخارى فى كتاب الأدب المفرد ، كما رواه الإمام أحمد فى مسنده عن أبى هريرة بلفظ (لأتمم صالح .....) .

الأديان السماوية . وهذا يدل من ناحية على أن القيم فطرية فى النفس البشرية قد زوَّد الله بها الإنسان عند خَلْقه ، وأن الطبيعة الإنسانية فى أصل فطرتها طبيعة خيِّرة وليست شريرة . فالأصل هو الخير والشر طارئ عليه . ومن أجل ذلك فإن الخير سيظل موجوداً فى العالم على الرغم من طغيان الشرّ . فالشرُّ مهما كانت سطوته لن يستطيع أن يمحو الخير من الوجود لأنه أصل الطبيعة الإنسانية .

ومن ناحية أخرى يدلنا توصُّل المصريين القدماء إلى التعرف بصورة كاملة على القيم على مدى التقدم الرائع لديهم فى هذا المجال ، الأمر الذى كان له أثره العظيم فى مساعدتهم على البناء الحضارى الشامخ الذى يعرفه التاريخ . فالحضارة ليست فقط أبنية شاهقة أو تقدماً فى المجال المادى ، وإنما هى - قبل كل ذلك - تقدُّم أخلاقى من شأنه أن يدفع إلى التقدم فى كل المجالات الأخرى فى الحياة . وهذا يعنى أنه كلما ازداد الإحساس بالقيم والوعى بها كان ذلك دافعاً إلى الصعود قدماً فى درجات التحضُّر والرقىّ . وقد صدق أمير الشعراء أحمد شوقى عندما ربط بقاء الدول وانحلالها بمدى حفاظها على الأخلاق الفاضلة فى قوله :

وَإِنَّمَا الأُمَمُ الأَخْلَاقُ مَا بَقِيَتْ  فَإِنْ هُمُو ذَهَبَتْ أَخْلَاقُهُمْ ذَهَبُوا

ومن خلال تصفُّحنا لما ورد عن قدماء المصريين فى هذا الصدد نجد أنفسنا نقف إجلالاً وإكباراً لأسلافنا العظام الذين كانوا حريصين كل

الحرص على القيم الأخلاقية والاجتماعية . وإن نظرة سريعة على ما جاء - على سبيل المثال - فى « كتاب الموتى » الفرعونى المأخوذ عن «برديَّة آنى » - التى لا تزال موجودة بالمتحف البريطانى والتى تشتمل على اثنين وأربعين بنداً - نجد منظومة أخلاقية متكاملة شملت كل جوانب الحياة الفردية والاجتماعية والدينية . ومن هذه المنظومة نقتطف بعض ما جاء فيها لنتذكر مفاخر أسلافنا من ناحية ، ولنعتبر بما جاء فى هذه المقتطفات من ناحية أخرى [1] .

يقول « آنى » معبِّراً عن هذه القيم والحفاظ عليها فى دفاع الميت عن نفسه فى العالم الآخر أمام الآلهة الذين يقطنون قاعة العدل والحق : إنى لم أرتكب إثماً ولم أسرق ، ولم أقتل ، ولم أنطق بالأكاذيب ، ولم أسبِّب ألماً أو حزناً أو بكاءً لأحد ، ولم أرتكب الزِّنا، ولم أتعامل بخبث ، ولم أرتكب الغشَّ ، ولم أتسبَّب فى خراب أرض محروثة ، ولم أتلصَّص على أحد أو أرتكب نميمة ، ولم أكن حانقاً غاضباً إلا من أجل الحق ، ولم أغرِّر بزوجة إنسان ، ولم أُدنِّس نفسى أو أُسبِّب الرعب لإنسان ، ولم أرتكب الفُحْشَ ، ولم أَصُمَّ أذنى عن كلمات الحق والعدل ، ولم أُمارس الكبرياء ، ولم أُشعل نيران خصام أو عِرَاك ، ولم أحكم دون رويَّة ، ولم أَسْعَ فى وشاية ، ولم أضخِّم الكلمات ، ولم ألوِّث أبداً المياه ، ولم أنطق باستهزاء ، ولم أحرم الرضيع طعامه .

(١) راجع : برت إم هرو : كتاب الموتى الفرعونى . ترجمه عن الهيروغليفية السير والس بدج ، وترجمه إلى العربية د. فيليب عطية . مكتبة مدبولى ١٩٨٨م .

وفى برديَّة أخرى يقول « نو » : لم أُعامل الخدم بسوء ولم أسمح بضرر يقع على خادم ممن يعلوه ، ولم أسبِّب تعاسة لأحد ، ولم أسلب المظلوم ما يملك ، ولم أتسبَّب فى ألم ، ولم أجعل أحداً يشعر بالجوع ، ولم أقتل ولا أمرت بالقتل لحسابى ، ولم أرتكب الزِّنا ، ولم أدنِّس نفسى ، ولم أزدْ ولم أنقصْ شبراً من الأرض ، ولم أستولِ على حقول الآخرين ، ولم أغشّ فى الكيل ولم أطفِّف الميزان ، ولم أطرد قطيعاً من مراعيه ، ولم أحوِّل مياه الرى فى موسمها ، ولم أخرِّب قنوات المياه الجارية .

وفى برديَّة « نو » – أيضاً – من خطاب إلى آلهة العالم السفلى نقرأ: لقد أعطيت الخبز للجوعى والماء للعطاشى والكساء للعرايا وزورقاً لمن تحطمت مراكبهم ..... إلخ . وفى برديَّة نبسنى « الناطق بالحق » تتردد نفس المعانى فى اثنين وأربعين بنداً . ومن الملاحظ أن عدد هذه البنود يتفق مع عدد الآلهة الاثنين والأربعين الموجَّه إليهم الخطاب والجالسين فى قاعة العدل . وفى كل هذه البرديَّات تأكيد على احترام المقدَّسات الدينية والحفاظ عليها وعدم تدنيسها بأى شكل من الأشكال .

ومن هذه المقتطفات يتضح لنا مدى الإحساس الخُلُقى المرهف والإدراك الواعى للقيم الأخلاقية وأهميتها فى حياة الأفراد والجماعات. وحين نطالع ذلك فإننا نشعر أن هؤلاء الذين قالوا ذلك منذ آلاف السنين كأنهم لا يزالون يعيشون بيننا الآن يشاركوننا الرؤية ذاتها التى ننظر بها إلى القيم الأخلاقية . فالإنسان هو الإنسان فى كل العصور

بصرف النظر عن تغيير الأحوال والظروف . وهذا يدل على أن القيم الأخلاقية ثابتة لا تتغير بتغيُّر الزمان أو المكان . فالفضيلة لا يمكن أن تنقلب إلى رذيلة ، والخير لا يمكن أن ينقلب إلى شر . فنحن مهما تغيَّرت وجهات نظرنا وتصوُّرنا للناس والأشياء فإن هناك ثوابت فى حياتنا ، ومن بينها « القيم الأخلاقية » .

* * *

## (٣)
# المسئولية الأخلاقية

لقد عرَّف علماء الأخلاق الإنسان بأنه « حيوان أخلاقى » أو «كائن أخلاقى » ، وذلك لأنه الكائن الوحيد من بين كل الكائنات الذى لا يستطيع أن يعيش فى هذه الحياة بدون قيم تحكم سلوكه على المستويين الفردى والاجتماعى ، بل وتحكم سلوكه إزاء الكائنات جميعاً . وهذا يعنى أن الإنسان بهذا الوصف لديه - بالفطرة - ضمير يُلزمه بالسلوك الأخلاقى - كما سبقت الإشارة إلى ذلك [١] .

والرسالات السماوية لم تأتِ لتغيِّر فطرة الإنسان ، وإنما أتت مؤيِّدة ومكمِّلة لها . ومن هنا كان قول الرسول - عليه الصلاة والسلام - : «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلَاقِ » [٢] . والدين حريص دائماً على أن تكون أوامره ونواهيه مطابقة للعقل وللحكمة وغير مناقضة للفطرة . والرسول فى توجيهاته النبوية يُحيل الإنسان إلى ضميره - إذا اختلطت عليه الأمور ولم يستطع أن يتبين أىَّ طريق يسلك - فيقول له : «اسْتَفْتِ

---

(١) راجع ص ١٤٣ .

(٢) سبق تخريج هذا الحديث ( راجع هامش ص ١٤٨ ) .

قَلْبَكَ »[1] . وحتى فى مقام الحساب والمساءلة يوم القيامة يكون لسلطان الضمير هذا الدور المهم الذى تعبِّر عنه الآية الكريمة :

﴿ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾[2] .

وهذا يعنى أن هناك ارتباطاً تاماً أو - بالأحرى - توحُّداً بين الشعور بالمسئولية والضمير . وعندما نتحدث عن الضمير فإننا نعنى به ذلك الشعور الكامن فى أعماقنا والذى يُعَدُّ بمثابة « البوصلة » أو المؤشِّر الذى يحدِّد لنا الوجهة الصحيحة لسلوكنا الأخلاقى فى الحياة .

وتُعَدُّ المسئولية الأخلاقية من الصفات المميِّزة للإنسان .وهى صفة يستمدها من طبيعته الإنسانية أولاً قبل أن تكون مفروضة عليه من خارجه ، ومن هنا فالإنسان مسئول أمام ضميره أولاً قبل أن يكون مسئولاً أمام الناس وأمام الله . وفى ذلك من التكريم للإنسان ما يجلُّ عن الوصف . ومن أجل ذلك ينبغى على الإنسان أن يكون على وعى تام بمسئوليته المتعددة الجوانب فى هذه الحياة . فالإنسان الواعى تماماً بمسئوليته لا يمكن أن يعيش على هامش الحياة لأنه مسئول عن الحياة ذاتها وعن إثرائها وترقيتها والنهوض بها .

والمسئولية تتأسَّس على قاعدة من الحرية الواعية . وهذا يعنى أن كل

---

(١) رواه الإمام أحمد فى مسنده من حديث وابصة بن معبد الأسدى ، والدارمى فى البيوع .

(٢) سورة الإسراء : ١٤ .

فعل يصدر من المرء دون حرية واعية لا تترتب عليه أية مسئولية أخلاقية أو دينية . والمسئولية تُلازم صاحبها قبل صدور الفعل وأثناءه وبعده ، وتعنى أن صاحبها له شخصيته المستقلة فى الفعل أو الترك ، فى القبول أو الرفض ، وله قدرته على تنفيذ ما استقرت عليه إرادته . وبهذا المعنى تُعَدُّ المسئولية صفة تشريف للإنسان لأنها مرادفة لمعانى الحرية والاستقلال والكرامة .

وهناك دوائر متعددة للمسئولية تبدأ بمسئولية الإنسان عن نفسه ، تلك المسئولية التى تُعَدُّ بمثابة المركز لكل دائرة من دوائر المسئوليات الأخرى . وهذا يعنى أن المسئولية تُفهم بمعنيين ، أولهما: مسئولية الإنسان عن نفسه . فهو مسئول عن عقله وعلمه وجسمه وماله وأوقاته ، وعن حياته بصفة عامة . وفى هذا المعنى يقول الحديث النبوى:

« لَا تَزُولُ قَدَمُ ابْنِ آدَمَ يَوْمَ القِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعٍ : عَنْ عُمْرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ ، وَعَنْ شَبَابِهِ فِيمَا أَبْلَاهُ ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَا أَنْفَقَهُ، وَعَنْ عِلْمِهِ مَاذَا عَمِلَ بِهِ »(١) .

أما المعنى الثانى فهو مسئولية الإنسان نحو الآخرين ونحو العالم الذى يعيش فيه . فمن المعلوم أن الإنسان - بطبيعته - كائن اجتماعى،

(١) رواه الترمذى فى سننه - كتاب : صفة القيامة ، باب (١) .

وهو فى حاجة إلى المجتمع الإنسانى لتطوير شخصيته . ومن ناحية أخرى فإن عليه التزامات أدبية تجاه هذا المجتمع الإنسانى، وهذه الالتزامات مرتبطة أشد الارتباط بوجوده الإنسانى . ومن هنا فإنه لا يستطيع أن يتحلل تماماً فى أية لحظة من لحظات حياته الواعية من المسئولية المرتبطة بوجوده الإنسانى .

وإذا كان الفيلسوف الإنجليزى المعروف « توماس هوبز » قد ذهب إلى القول بأن « الإنسان ذئبٌ بالنسبة لأخيه الإنسان » وأن «الكلَّ فى حرب ضدَّ الكلِّ » [1] فإنه – من منطلق النظرة الإنسانية والدينية الراقية – يمكن القول بأن « الكلَّ مسئولٌ عن الكلِّ » .

* * *

(١) راجع كتابنا : مقدمة فى علم الأخلاق ص ١٠٣ – دار الفكر العربى ١٩٩٣م .

## (٤)
# قيمة الرحمة

من بين كل القيم التى تشتمل عليها منظومة القيم الأخلاقية الإسلامية قيمة رفيعة القدر بالغة الأهمية تتصدر هذه المنظومة وترتفع فوق قمتها ، ألا وهى قيمة الرحمة . والرحمة ليست مجرد عاطفة عارضة أو شفقة وقتية مرتبطة بموقف معين ، وإنما هى بطبيعتها ينبغى أن تكون خُلُقاً ثابتاً ومتأصِّلاً فى النفس الإنسانية ، وشاملاً لكل قيم السلوك الفاضل فى التعامل مع البشر ومع كل الكائنات الأخرى فى هذا الوجود . ومن هنا كانت الرحمة هى الهدف الأسمى والغاية العظمى للرسالة الإسلامية ، كما جاء ذلك فى القرآن الكريم فى قول الله تعالى لنبيه ﷺ :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (١) .

وتأكيداً لذلك وترسيخاً لهذه القيمة العظيمة فى النفوس تكرَّر مفهوم الرحمة مئات المرات فى القرآن الكريم ، وفى الأحاديث النبوية ، وفى أول كل سورة من سور القرآن الكريم . وفضلاً عن ذلك فإن كل

(١) سورة الأنبياء : ١٠٧ .

عمل يبدؤه المسلم يفتتحه - فى العادة - بالقول : « بسم الله الرحمن الرحيم » . وهذا التأكيد من شأنه أن يجعل قيمة الرحمة حاضرة باستمرار فى وعى الناس حتى يكون التعامل فيما بينهم قائماً على هذا الأساس . فالله هو الرحمن وهو الرحيم ، ورحمته وسعت كل شىء ، والله يحب من عباده أن يكونوا على صفته وأن يتخلَّقوا بأخلاقه ، وما دامت الرحمة من أبرز صفاته فينبغى أن يكونوا رحماء فيما بينهم .

ولكننا - للأسف الشديد - نفتقد هذه القيمة العظيمة فى كثير من تعاملاتنا اليومية . فالقسوة قد حلَّت محل الرحمة فى كثير من علاقات الناس اليومية وتعاملاتهم الحياتية . والأمثلة على ذلك كثيرة: فهناك الأب الذى يقسو على أبنائه ، والأولاد الذين يقسون على آبائهم ويتنكَّرون لكل ما قدَّموه لهم ، والزوج الذى يقسو على زوجته ، والزوجة التى تقسو على زوجها ، والرئيس فى العمل الذى يقسو على مرءوسيه ، والموظف الذى يقسو على المواطنين . ناهيك عن الإقدام على ظلم الأبرياء واغتصاب حقوقهم وإراقة دمائهم بلا ذنب ولا جريرة ، أو الإقدام على إزهاق الأرواح لأتفه الأسباب .

وصفحات الحوادث فى الصحف اليومية تطالعنا بالكثير من حوادث القتل التى لا مبرِّر لها ، أو التى تنجم عن أسباب تافهة أو متوهَّمة حتى فى داخل الأسرة الواحدة . وقد شبَّه الله قلوب هؤلاء

الذين قست قلوبهم ونُزعت منها الرحمة بأنها ﴿ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ (١) . وهذه ظواهر غريبة على مجتمعنا المعروف بالاعتدال على مدى تاريخه الطويل . فتقاليده الدينية - منذ التاريخ القديم - تنطلق من قيم التسامح والمحبة والرحمة .

وإذا كان التعامل فى محيط البشر على هذا النحو من القسوة فإن التعامل مع الحيوان ليس أسعد حظاً . فالقسوة هى الغالبة حتى لدى البعض من الأطفال الذين يلهون ببعض الحيوانات أو الطيور بطريقة بشعة ولا يجدون من يردعهم عن ذلك . وكثيرون فى القرى يتعاملون بقسوة مع دوابِّهم التى تحمل لهم أمتعتهم ومحاصيلهم وأسمدتهم .

وهذا السلوك الذى يخلو من الرحمة يُعَدُّ سلوكاً لا يليق بالإنسان الذى كرَّمه الله وجعله خليفة فى الأرض ليعمرها بالخير وينشر فيها القيم الفاضلة وعلى رأسها قيمة الرحمة ، تلك القيمة التى إذا تمكنت من النفوس وترسخت فى العقول فإنها تتحول - تلقائيًا ودون تكلُّف - إلى أسلوب للتعامل مع كل الكائنات . وتمثل الرحمة أرقى درجات السموِّ الأخلاقى الإنسانى ، لأن هذا السلوك مرتبط فى الوقت نفسه بالتسامح والحب لكل الكائنات . ولا يمكن لمن يتخلَّق - حقيقةً - بهذا الخُلُق أن يكون ظالماً أو متعصِّباً أو حقوداً أو متطرِّفاً فى فكره أو فى سلوكه .

---

(١) سورة البقرة : ٧٤ .

ومن هنا نفهم لماذا كان تركيز الإسلام على هذه القيمة بالذات أكثر من تركيزه على أيّ قيمة أخرى ، لأنها المفهوم الجامع لكل قيم الحق والخير فى هذا الوجود . ومن أجل ذلك أكّد عليها النبى ﷺ تأكيداً واضحاً فى العديد من الأحاديث النبوية . ومن ذلك قوله : «ارْحَمُوا مَنْ فى الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فى السَّمَاءِ »[1] ، وقوله : «الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ »[2] . كما أكّد فى الوقت نفسه على التمسُّك بهذا الخُلُق فى التعامل مع الحيوان فى قوله : « اتَّقُوا اللهَ فى هَذِهِ البَهَائِمِ العَجْمَاوَاتِ »[3]. لأنها لا تستطيع أن تُفصح عما فى نفسها ، أو تعبِّر عما تشعر به . ويشير النبى العظيم ﷺ - فى هذا الصدد - إلى بعض الأمثلة من بينها أن «رَجُلاً رَأَى كَلْباً يَلْهَثُ مِنَ العَطَشِ فَنَزَلَ بِئْراً وَمَلأَ خُفَّهُ مَاءً فَسَقَى الكَلْبَ فَشَكَرَ اللهُ لَهُ وَغَفَرَ لَهُ»[4] . وفى المقابل يخبرنا بأن « امْرَأَةً دَخَلَتِ النَّارَ فى هِرَّةٍ حَبَسَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ فَلَا هِىَ أَطْعَمَتْهَا وَلَا هِىَ تَرَكَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الأَرْضِ»[5] .

فالحياة سواء كانت حياة إنسان أو حيوان لها حرمتها التى ينبغى

---

(١) رواه الترمذى فى كتاب البر والصلة - باب (١٦) .

(٢) رواه الإمام أحمد فى مسنده من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص .

(٣) رواه أبو داود فى كتاب الأدب - باب (٥٨) .

(٤) رواه البخارى فى كتاب المساقاة - باب (٩) .

(٥) رواه البخارى فى كتاب بدء الخلق - باب (٨٦) ، ومسلم فى كتاب التوبة - باب (٤) ، والإمام أحمد فى مسنده .

الحفاظ عليها وصيانتها وإنقاذها من كل ما يمكن أن تتعرض له من مخاطر . وقد جعل الإسلام الاعتداء على نفس إنسانية واحدة بمثابة اعتداء على الإنسانية كلها ؛ كما جاء ذلك بوضوح تام فى القرآن الكريم. والرحمة هى الخُلُق الذى يمثل سياجاً منيعاً لحماية الحياة فى شتَّى صورها من مختلف الأخطار .

ومن أجل ذلك فإنه من العبث بالقيم والأخلاقيات وصف قتل الإنسان الميئوس من شفائه بأنه « قتلٌ رحيمٌ » لتخليص المريض من آلامه . فهذا القتل يُعَدُّ بكل المقاييس امتهاناً للحياة الإنسانية ، ولا صلة له بالرحمة من قريب أو من بعيد ؛ حتى وإن كان بموافقة المريض نفسه؛ لأنه فى هذه الحالة يُعَدُّ انتحاراً بالوكالة . وليس من حق أحد أن يُنهى هذه الحياة بأى شكل من الأشكال . فصاحب الحق الوحيد فى إنهاء الحياة هو واهب الحياة وهو « الله » الذى جعل لكل أجل كتاباً ووقتاً محدَّداً لا يتقدم ولا يتأخر .

إن رصيدنا الدينى والأخلاقى بصفة خاصة ، والحضارى بصفة عامة ، يحتِّم علينا أن نعيد النظر فى الكثير من سلوكياتنا اليومية لنرتفع بها إلى مستوى القيم التى تضمن لمجتمعنا التقدم والازدهار ، والأمن والأمان ، والسلام والاستقرار ، حتى ينعم الجميع بحياتهم ، ويسعدوا بدنياهم فى جو من الرحمة والتراحم ، والمحبة والتسامح ، والألفة والتعاون على كل ما فيه الخير والصلاح للوطن والمواطنين .

# (٥)
# قيمة التسامح

لقد خلق الله الناس مختلفين ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ﴾ [١] كما يقول القرآن الكريم . ولكن هذا الاختلاف بين الناس فى أجناسهم ولغاتهم وعقائدهم لا ينبغى أن يكون منطلقاً أو مبرِّراً للنزاع والشقاق بين الأمم والشعوب ، بل الأحرى أن يكون هذا الاختلاف والتنوُّع دافعاً إلى التعارف والتعاون والتآلف بين الناس من أجل تحقيق ما يصبون إليه من تبادل للمنافع وتعاون على تحصيل المعايش ، وإثراء للحياة والنهوض بها . ومن هنا يقول القرآن الكريم: ﴿ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾ [٢] . والتعارف هو الخطوة الأولى نحو التآلف والتعاون فى جميع المجالات .

وحتى يمكن الوصول إلى هذا الهدف كان لابد من إيجاد وسيلة للتفاهم وتبادل المشاعر والأفكار بين الناس . فكانت اللغة التى يتخاطب بها الناس ويعبِّرون بها عن أغراضهم ومشاعرهم وأفكارهم.

---

(١) سورة هود : ١١٨ ، ١١٩ .

(٢) سورة الحجرات : ١٣ .

ويُعَدُّ التفاهم عن طريق اللغة أسلوباً راقياً للحوار بين البشر وللتواصل الفكرى فيما بينهم .

والحوار - بهذا المعنى - يعنى الاحترام المتبادل بين أطراف الحوار ، واحترام كل جانب لوجهة نظر الجانب الآخر حتى لو كانت مخالفة لرأيه . كما أن الحوار يعنى التسامح واحترام حرية الآخرين . فالخلاف فى الرأى وفى الفكر وفى الاعتقاد لا يجوز أن يُفسد ما بين الناس من علاقات . ومن هنا شاع بين الناس القول المشهور : «الخلافُ فى الرأى لا يُفسد للودِّ قضيَّةً» .

وكما أُعطى لنفسى الحق فى أن يكون لى رأيى الخاص ووجهة نظرى المستقلة فكذلك ينبغى أن أُعطى الحق ذاته للآخر .فمن حقه - أيضاً - أن يكون له رأيه الخاص ووجهة نظره المستقلة ، بل ومن حقه أن يكون له معتقده المختلف . فكل فرد فى هذا الوجود له شخصيته المستقلة . وقد أعطانا الله رمزاً لهذه الاستقلالية يتمثل فى عدم اتفاق بصمة إبهام فردين فى هذا الوجود مع بعضهما . فالخلاف فى الرأى - إذن - شىء طبيعى وليس أمراً شاذًّا .

ومن هنا فإنه لا يجوز للمرء أن يضيق صدراً بالآراء المخالفة لرأيه، ليس فقط فى مجال الأمور اليومية العادية ، بل حتى فى أمور الدين والفكر والسياسة . فلا يجوز لطرف من الأطراف أن يدَّعى لنفسه أنه وحده الذى يملك الحق المطلق وأن غيره يقف فى الطرف المقابل الذى

يتساوى مع الباطل . وقد عبَّر الإمام الشافعى عن هذا المعنى فى تسامح رائع قائلاً : « رَأْيُنا صَوابٌ يحتملُ الخطأَ ورَأْىُ غيرِنا خطأٌ يحتملُ الصَّوابَ » .

وقد بلغت السماحة فى الفكر الإسلامى المستنير حَدًّا لا نظير له ؛ عبَّر عنه الشيخ محمد عبده بما « اشتهرَ بينَ المسلمينَ وعُرِفَ من قواعد أحكام دينهم » قائلاً : « إذا صدرَ قولٌ مِنْ قائل يحتملُ الكفرَ مِنْ مائةِ وجهٍ ويحتملُ الإيمانَ مِنْ وجهٍ واحدٍ حُمِلَ على الإيمانِ ، ولا يجوزُ حَمْلُهُ على الكفرِ » ويعقِّب الشيخ على ذلك قائلاً : فهل رأيتَ تسامحاً مع أقوال الفلاسفة والحكماء أوسع من هذا ؟ (١) .

إن الحوار – فى معناه الصحيح – ليس هدفه مجرد فك الاشتباك بين الآراء المختلفة . وإنما هدفه الأكبر إثراء الفكر وترسيخ قيمة التسامح بين الناس ، وتمهيد الطريق للتعاون المثمر فيما يعود على جميع الأطراف بالخير . والحوار – بهذا المعنى – قيمة حضارية ينبغى الحرص عليها والتمسُّك بها وإشاعتها على جميع المستويات .

والوعى – بذلك كله – أمر ضرورى يجب أن نعلِّمه للأجيال الجديدة ، وبصفة خاصة عن طريق القدوة وليس عن طريق التلقين . فالواقع المؤلم أنه كثيراً ما تحدث مشادَّات عنيفة تخرج عن نطاق

(١) راجع : الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية للشيخ محمد عبده . ص ٥٣ – دار المنار بمصر ١٣٧٣ هـ .

الموضوعية ، وربما يتطور الأمر إلى شجار وتماسك بالأيدى بين الأطراف المختلفة فى الرأى ، لأن كل جانب يريد فرض رأيه بشتَّى السُّبُل . ولا يقتصر ذلك على المستويات الدنيا فى المجتمع ، بل ينسحب على شريحة لا يُستهان بها بين المشتغلين بالفكر وبالثقافة بصفة عامة ، حيث يصل الأمر فى أحيان كثيرة إلى حد الخروج عن مناقشة الفكر بالفكر إلى الشتائم والتجريح الشخصى الذى لا صلة له بالنقاش الموضوعى . وإن دل هذا الخروج عن الموضوعية على شىء فإنما يدل على ضحالة فى الفكر وقصور فى الحُجَّة وفقر فى المنطق .

وهذا الخروج عن الموضوعية فى الحوار - على هذا النحو - أمر لا يليق بالإنسان الذى كرَّمه الله ، وفضَّله على بقية الكائنات ، وميَّزه بالعقل ، وجعله خليفة فى الأرض ليعمرها بالخير ، ويملأها بالعلم ، وينشر فيها الحق والعدل والأمن والسلام .

ولا جدال فى أن الحوار قد أصبح فى عصرنا الحاضر أكثر إلحاحاً من أى وقت مضى ، بل أصبح ضرورة من ضرورات العصر ، ليس فقط على مستوى الأفراد والجماعات ، وإنما على مستوى العلاقات بين الأمم والشعوب المختلفة . وإذا كانت بعض الدول فى القرن الجديد لا تزال تفضِّل شريعة الغاب بدلاً من اللجوء إلى الحوار فإن على المجتمع الدولى أن يصحِّح الأوضاع ، ويعيد مثل هذه الدول الخارجة على القيم

الإنسانية والحضارية إلى صوابها حتى تنصاع إلى الأسلوب الحضارى فى التعامل وهو « الحوار » . فليس هناك من سبيل إلى حل المشكلات وتجنب النزاعات إلا من خلال « الحوار».

## (٦)
# قيمة التواضع

على الرغم من اختلاف الناس فى أجناسهم وألوانهم وعقائدهم ولغاتهم فإنهم جميعاً متساوون فى الاعتبار البشرى ، لأنهم ينتسبون جميعاً إلى أصل واحد . فكلهم أولاد آدم وحواء . ومن هنا فليس هناك مبرِّر معقول لتعالى فرد على فرد آخر أو جنس على جنس آخر ، لأنه لا توجد - فى الحقيقة - فروق جوهرية بين بنى الإنسان . ولكنَّ هناك بطبيعة الحال فروقاً فى المستوى الثقافى أو الاجتماعى أو المادى بصفة عامة . وهذه أمور لا صلة لها بجوهر الإنسان من حيث هو إنسان .

والإدراك الواعى لذلك كله أمر له أهمية بالغة فى علاقات الناس بعضهم ببعض . فكلما كان هذا الإدراك واضحاً كان ذلك دافعاً للتواضع والتعامل مع كل الناس من كافة المستويات على أنهم بشر متساوون فى القيمة الإنسانية . وكلما كان هذا الإدراك غائباً عن الوعى برزت فى تعامل الناس - بعضهم مع بعض - الفروق الثانوية المشار إليها ، مما يؤدى إلى غياب البعد الإنسانى ، وظهور نبرة التعالى والتكبُّر

والاستعلاء فى النظرة إلى الآخر . فإذا كان معه قرشٌ فإنه يساوى قرشاً - كما يقول المثل المعروف - : « اللى معاه قرش يساوى قرش » ، وهذا يعنى - أيضاً - أن من يمتلك الملايين فإنه يساوى الملايين . وبنفس المنطق فإن من لا يملك شيئاً فإنه لا يساوى شيئاً . وفى خضمِّ هذا التقييم المادى البحت للبشر تضيع القيمة الإنسانية فى التعامل بين الناس .

والقيمة المقابلة للتكبُّر والاستعلاء هى التواضع . والتواضع ليس قيمة سلبية ، ولا يعنى - بأى حال من الأحوال - أن يتنازل المرء عن شىء من كرامته ، وإنما يعنى القرب من الناس والتعامل معهم على أنهم بشر يتفقون فى الجوهر ، ويختلفون فى الأمور الأخرى الثانوية التى هى - بطبيعتها - متغيرة ولا تثبت على حال .

إن التواضع - إذن - يعنى احترام آدمية الناس بصرف النظر عن أوضاعهم الأخرى غير الجوهرية . ومن هنا فإنه لا يعنى الضعف بأى حال من الأحوال ، إنه - على العكس من ذلك - يدل على قوة الشخصية وثرائها الداخلى وعلى ثقة الشخص المتواضع بنفسه . ومن أجل ذلك دعا الإسلام إلى التواضع والبعد عن التعالى على الآخرين . وفى ذلك يقول النبى - عليه الصلاة والسلام - :

« إِنَّ اللهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ ، وَلَا يَبْغِي أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ »[1] .

(١) رواه أبو داود فى كتاب الأدب - باب (٤٠) ، وابن ماجه فى كتاب الزهد - باب (٢٣) .

أما الاستعلاء والتكبُّر على الآخرين فإنه دليل ضعف فى الشخصية، لأنه يعنى الفقر الداخلى لدى الشخص المتكبِّر وانعدام ثقته بنفسه . ومن أجل ذلك يحاول أن يدارى هذا الخلل فى شخصيته بالتعالى على غيره من البشر ممن يرى أنهم أدنى منه ، ناظراً إليهم باستعلاء ، وربما بازدراء . ويتصل بذلك ما نراه فى حياتنا اليومية من نبرة الغرور لدى العديد من الناشئين فى مجالات مختلفة حيث يزعمون أنهم لم يستفيدوا شيئاً من خبرات غيرهم ، وكأن الخبرات قد سقطت عليهم من السماء .

لقد كان عظماء التاريخ من أنبياء الله ورسله وقادة الفكر والعلم والفن والأدب فى العالم - بما لديهم من عطاء مشكور ؛ كلٌّ فى مجاله ، وبما كان لهم من جهود سطروا بها أنصع صفحات التاريخ - كانوا بعيدين كل البعد عن أى لون من ألوان التكبُّر والاستعلاء ، وكانوا نماذج يُحتذى بها فى التواضع والقرب من الناس .

أما هؤلاء الذين يعزلون أنفسهم فى أبراج عاجيَّة . ويجعلون بينهم وبين الآخرين حواجز مصطنعة كأنهم من كوكب آخر ينظرون منه إلى سكان الأرض بمنظار الاستعلاء ، فهؤلاء لا يفهمون قيمة الإنسان من حيث هو إنسان . إنهم لا يرون الجوهر ، ويرون القشور والمظاهر فحسب ، ويبنون حياتهم على حب الظهور والاستعلاء على خَلْق الله. وهؤلاء لا مكان لهم فى قلوب الناس ولا فى صحائف التاريخ . إنهم

يعيشون على هامش الحياة منفصلين عن حقيقة الوجود . وحتى لو دخلوا التاريخ فإن دخولهم إليه يكون من الباب الخطأ ، وسيظل التاريخ يَصِمُهم بذلك مسجِّلاً عليهم تنكُّرهم للقيم والمبادئ الإنسانية.

والمتواضع إنسان يقدِّر نفسه حق قدرها ، فلا يعطى لنفسه أكثر من حقه . وهذا من شأنه أن يدفعه إلى استكمال ما يراه ناقصاً لديه . فإذا كان مشتغلاً بالعلم فإن التواضع يدفعه إلى الاستزادة من العلم والمعرفة، وإذا كان صاحب صنعة أو مشتغلاً بالطب أو الهندسة أو غيرهما من مجالات علمية أخرى فإن التواضع يدفعه إلى المزيد من البحث عن كل جديد فى مجاله .

ومن هنا كانت الوصية الإلهية لمحمد ﷺ بأن يدعو ربه الاستزادة من العلم - كما يقول القرآن الكريم - :

﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾[1].

أما المتكبِّر المغرور فإنه يعتقد أنه قد وصل إلى ما لم يصل إليه الآخرون ، صانعاً لنفسه هالة من العظمة الكاذبة تقف به عن الاستزادة من العلم والمعرفة والخبرة اللازمة لتطوير شخصيته ، وبخاصة فى مجال القيم الإنسانية . فيزداد جهلاً على جهل . وهذا هو شأن الجاهل المركَّب الذى يجهل ، وفى الوقت نفسه يجهل أنه جاهل .

---

(١) سورة طه : ١١٤ .

إن الثراء الداخلى - الذى يحمل الإنسان على التواضع - هو ما قصده القرآن الكريم عندما امتدح القساوسة والرهبان المسيحيين ووصفهم بأنهم لا يستكبرون ، أى أنهم متواضعون ، وذلك فى قوله تعالى :

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ (١) .

* * *

(١) سورة المائدة : ٨٢ .

# (٧)
# قيمة الحياء

من القيم النبيلة فى حياة الناس أفراداً وجماعات قيمة الحياء . ومن شأن الحياء أن يمنع المرء من فعل أى شىء لا يتفق مع الأخلاق الكريمة والسلوك الحميد . وهذا يعنى أن الحياء والضمير صنوان لا يفترقان . ومن أجل ذلك يُعَدُّ الحياء فى التصوُّر الإسلامى عنصراً أساسيًّا من عناصر الإيمان ، فإذا رُفع أحدهما رُفع الآخر - كما ورد فى الحديث النبوى (١) .

والإيمان ليس مجرد عقيدة قلبية أو أمراً نظريًّا فحسب ، وإنما هو مرتبط بالعمل وبالحياة ارتباطاً وثيقاً . وكثير من آيات القرآن الكريم تربط الإيمان بالعمل الصالح . والعمل الصالح لا ينفصل عن الحياة ، ويعنى - فى معناه الواسع - كل عمل يقوم به الإنسان فى هذه الحياة ، دينيًّا كان هذا العمل أم دنيويًّا ، طالما قصد به المرء وجه الله ونفع الناس ودفع الأذى عنهم .

---

(١) نص الحديث : « الإيمان بِضْعٌ وسبعون شُعبة : فأفضلها قول لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شُعبة من الإيمان » . وقد رواه الإمام مسلم وأبو داود وابن ماجه والنسائى . ( راجع : فيض القدير ج ٣ ص ١٨٥ ) .

ويختلف الحياء عن مجرد الخجل . فالخجل قد تكون له جوانب سلبية ، أما الحياء فإنه إيجابيٌّ دائماً . ومن هنا يقول الرسول – عليه الصلاة والسلام – : « الحَيَاءُ خَيْرٌ كُلُّهُ »[1] . ولا يجوز أن يُفهم الحياء على أنه أداة مانعة من فعل ما يشين فحسب ، فالحياء يشتمل على ذلك وأكثر منه ، إنه مانع ودافع فى الوقت نفسه : مانع من الأفعال المرذولة ودافع إلى الأفعال المحمودة ، لأنه إذا كان شعبة من شعب الإيمان ، وإذا كان الإيمان لا ينفصل عن العمل ، فإن الحياء – بالتالى – لا ينفصل عن العمل أيضاً .

والحياء والنفاق لا يجتمعان ؛ فالحياة الخُلُقية للإنسان لا تسمح له بأن يكون ذا وجهين يفعل أمام الناس شيئاً وبينه وبين نفسه يفعل شيئاً آخر مخالفاً . فهذا ليس من المروءة ولا من الأخلاق الكريمة فى شىء . فالإنسان ينبغى أن يستحى من نفسه كما يستحى من غيره . ومن هنا قيل : إن المروءة ألَّا تفعل سرًّا أمراً وأنت تستحى أن تفعله جهراً . فالحياء – إذن – سياج خُلُقى يمنع المرء من فعل أى أمر لا يتفق مع القيم الأخلاقية والدينية ، ويهيئه فى الوقت نفسه للالتزام بما يمليه عليه الضمير من سلوك فاضل.

وعلى النقيض من ذلك إذا فُقد الحياء ( أو سقط عن المرء برقع الحياء كما يقال ) فإنه لا يجد حرجاً فى فعل أى شىء يتنافى مع القيم الأخلاقية

(١) رواه مسلم فى صحيحه – كتاب الإيمان – باب (١٢) ، وأبو داود فى سننه – كتاب الأدب – باب (٦) .

والدينية . ولا يخشى فى سلوكه هذا لومة لائم . ومن أجل ذلك قيل : «إِذَا لَمْ تَسْتَحِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ »[1]. وما يصنعه المرء لا يقتصر عليه فقط ، بل يتعداه إلى غيره فى المجتمع . وهذا يعنى أن الحياء ليس فضيلة فردية تقتصر على صاحبها فحسب ، وإنما هو - بالإضافة إلى ذلك - فضيلة اجتماعية أيضاً تتعدى صاحبها إلى دائرة أوسع وتشمل المجتمع بأسره ، كما أن نقيض الحياء من الصفاقة والفحش يتجاوز بدوره - أيضاً - دائرة الفرد إلى دائرة المجتمع .

والحياء من القيم التى عرفتها كل الشعوب منذ بدء الخليقة ، ومن هنا يُعَدُّ فضيلة فطرية . وقد أكَّد الإسلام عليها تأكيداً واضحاً بجعلها جزءاً لا يتجزأ من الإيمان - كما سبقت الإشارة إلى ذلك - وبجعلها معبِّرة عن خُلُق الإسلام كما ورد فى الحديث النبوى « إِنَّ لِكُلِّ دِينٍ خُلُقاً، وَخُلُقُ الإِسْلَامِ الحَيَاءُ »[2] . وفى ضوء ذلك كله ينبغى أن يظل الحياء قيمة أخلاقية وفضيلة اجتماعية لا تتأثر بظروف الزمان والمكان .

ولكن الملاحظ فى ظل المتغيرات الهائلة التى طرأت على المجتمعات المعاصرة أن قيمة الحياء قد طرأ عليها فى المجتمعات المتقدمة صناعيًّا الكثير من التغيير الذى كاد أن يجعلها مجرد لفظ ليس له مضمون .

---

(١) رواه أبو داود فى كتاب الأدب - باب (٦) بلفظ « إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى إذا لم تستحِ فافعلْ ما شئت » .

(٢) رواه ابن ماجه فى كتاب الزهد - باب (١٧) .

فباسم الحرية الشخصية وباسم حقوق الإنسان لا يتورع الناس عن فعل الكثير من الأمور التى كان الحياء - فى السابق - يمنعهم من فعلها. وما أكثر ما يُرتكب اليوم من آثام خُلُقية باسم حقوق الإنسان وباسم الحرية الشخصية . ففى ظلها يعلن الشواذ بكل تبجُّح عن شذوذهم المُنافى - أصلاً - للطبيعة البشرية ويجدون من يدافع عنهم من جانب منظمات عالمية لحقوق الإنسان .

فهل أصبح الحياء علامة من علامات التخلُّف فى عالمنا المعاصر؟ إن الإنسان الذى كرَّمه الله ينبغى - فى ظل كل المتغيرات - أن يحافظ على هذه الكرامة وعلى قيمة الإنسان من حيث هو إنسان. وهذا لن يتحقق بصورة كاملة إلا إذا كان للحياء فى حياة الناس مكانه ودوره فى حماية الأخلاق من الانهيار . ومن أجل ذلك سيظل الحياء « خُلُق الإسلام » - كما أخبر بذلك النبى عليه الصلاة والسلام - مهما طرأ على العالم من متغيرات . فالانتقاص منه انتقاص من الإيمان ، وطعنة فى الصميم موجهة إلى المنظومة الأخلاقية التى من شأن الحياء أن يكون حارساً على تحقُّقها فى دنيا الواقع وفى حياة الناس حتى يكونوا جديرين بأن يكونوا خلفاء لله فى أرضه .

❁❁❁

## (٨)
# قيمة العلم

من العبارات الدارجة فى اللسان الشعبى عبارة « العلم نور » . وهى عبارة صحيحة تماماً . فالعلم من شأنه أن يزيل ظلام العقول ويمحو الجهل الذى هو ظلمة فى العقل تحجب عنه الحقائق ، وتجعله عاجزاً عن فهم ما يدور حوله على نحو سليم . وبصرف النظر عن الذكاء الفطرى لدى بعض الناس فإن الجهل يُعَدُّ حجاباً سميكاً أمام العقل الإنسانى . ومن هنا فإن كل جهد يُبذل فى إزالة الغشاوة عن العقول يُعَدُّ بمثابة رد للاعتبار الإنسانى للفرد الأمىّ ، وتأكيد لإنسانيته ؛ لأن الجهل ينزل بالإنسان إلى مرتبة الحيوان الأعجم .

ومعلوم أن قدماء المصريين كانوا من أوائل الشعوب التى عرفت الكتابة إن لم يكونوا هم الروَّاد الأوائل على الإطلاق فى هذا الصدد ، والكتابة باب العلم والمعرفة . ومعلوم أن من يملك العلم يكون قادراً على صنع الحضارة . وقد ترك لنا قدماء المصريين حضارة عريقة نعتز بها كل الاعتزاز ، كما ترك لنا المسلمون فى القرون الأولى للإسلام -

وبخاصة فى القرنين التاسع والعاشر الميلاديين - حضارة نعتز بها أيضاً كل الاعتزاز . ولكن الوقوف عند حد الاعتزاز وعدم اتخاذ خطوات جديدة فى سبيل الإضافة إلى ما قدَّمه السابقون يُعَدُّ عجزاً لا يليق بورثة الحضارات العريقة .

ومن هنا يعيب جمال الدين الأفغانى على الشرقيين - فى حديث له مع المفكر الإسلامى شكيب أرسلان - وقوفهم عند حدِّ ترديد مقولات الفخر والاعتزاز بما خلَّفه لنا الأجداد من حضارة عريقة ، مشيراً إلى أنه لا يجوز لنا أن نتذكر مفاخر الآباء والأجداد إلا إذا صنعنا مثلما صنعوا ، وأضفنا جديداً مثلما أضافوا بدلاً من الوقوف عند حد الاعتزاز بما ورثناه عنهم .

لقد نقلت إلينا الصحف منذ شهور قليلة تقرير المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة ( الإيسيسكو ) الذى يُبيِّن لنا أن نسبة الأمية فى دول العالم الإسلامى تفوق ٤٦٪ من مجموع السكان . وفى الوقت الذى يحاول فيه العالم الإسلامى محو الأمية الأبجدية نجد العالم المتقدم مشغولاً بمحو الأمية التكنولوجية ، وهذا يُبيِّن لنا الفرق بين مستوى التقدم فى العالم الإسلامى وفى الغرب . فكلما زادت الأمية كان ذلك دليلاً على ارتفاع نسبة التخلُّف ، وكلما قلَّت نسبة الأمية اقتربنا من طريق التقدم .

وفى مصر تصل نسبة الأمية إلى ما يقرب من ٣٠٪ من مجموع

السكان رغم الجهود الكبيرة التى تبذلها الهيئة القومية لمحو الأمية . وهذا أمر لا يجوز السكوت عليه . فالأمية الأبجدية لا يجوز أن يكون لها وجود فى بلادنا إذا أردنا أن نجد لنا مكاناً يليق بنا على خريطة العالم فى القرن الجديد . ومن أجل ذلك طالب السيد رئيس الجمهورية فى المؤتمر القومى للتنمية الاجتماعية بضرورة القضاء على الأمية خلال السنوات الخمس المقبلة .

وهنا فى مصر أكثر من خمسة عشر ألف جمعية أهلية غير حكومية يجب أن تشارك بجدية فى العمل من أجل القضاء على الأمية فى جميع أنحاء البلاد . ولا يجوز أن يظل الاعتماد على الجهود الحكومية وحدها . فالزيادة المستمرة فى عدد السكان - والتى تصل إلى مليون طفل جديد كل عشرة أشهر - تلتهم كل جهد يُبذل فى سبيل التنمية الشاملة التى تتكفَّل بها الدولة .

إن العلم قيمة ينبغى أن نحرص عليها ونبذل فى سبيل ترسيخ أركانها فى المجتمع كل غالٍ ورخيص . والأمية وصمة عار يمثل وجودها تعطيلاً لجهود التنمية . فالأمية تعنى الجهل وانتشار الخرافات والأوهام ، كما تعنى سوقاً رائجة للدجل والشعوذات . وهذا معناه المزيد من التخلُّف والتعصُّب والجمود والانغلاق .

إن العلم نور - كما سبق أن أشرنا - ومسئوليتنا جميعاً أن ننشر هذا

النور فى كل مكان ، وهذا يعنى - أيضاً - بذل المزيد من الجهد من أجل القضاء على هذه الظاهرة الكريهة فى المجتمع . وبذلك نكون قد قضينا على أهم المعوقات فى طريق التنمية الشاملة فى جميع المجالات ، وبالتالى يمكننا أن ننطلق بخُطًى أسرع نحو مزيد من التقدم والازدهار .

## (٩)
# قيمة العمل

لقد أراد الله للإنسان أن يعمِّر هذه الأرض ويمهدها للعيش فيها . ومن أجل ذلك سلَّحه بالعلم الذى من خلاله يستطيع أن يقوم بهذه المهمة . ولكن العلم وحده لا يقيم عمراناً ولا يُنشئ حضارة إلا إذا انضم إليه العمل لتطبيق نتائج هذا العلم حتى تصبح واقعاً ملموساً يستفيد منه كل من يعيش على هذه الأرض من إنسان وحيوان .

والعمل أحد مسئوليات الإنسان الأساسية التى لا غِنَّى عنها فى هذه الحياة ، وعلى الإنسان الذى يريد أن يعيش على هذه الأرض أن يعمل ، من أجل ترقية الحياة فيها ، ولا يجوز أن يكون طفيليًّا عليها يأكل من خيراتها دون عمل . والمطلوب من كل فرد أن يقوم بالعمل الذى يتناسب مع قدراته البدنية ومواهبه العقلية « فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لما خُلِقَ لَهُ » (١) كما ورد فى الحديث النبوى الشريف .

وليس من المقبول ولا من المعقول أن يستخفَّ الإنسان بقيمة العمل وأهميتها البالغة للحياة والأحياء . فلا خير فى إنسان لا يعمل . وقد ورد

(١) رواه الإمام مسلم فى صحيحه ، عن علىّ رضى الله عنه .

أن النبى - عليه الصلاة والسلام - رأى فى المسجد رجلاً يتحامل على الناس فسأل عنه فقالوا : هذا عابدُنا ، فسأل عمَّن يرعاه ويؤكِّله ؟ قالوا: كُلُّنا يا رسول الله ، فقال : « كُلُّكُمْ خَيْرٌ مِنْهُ »[1] . وهذا يعنى أن ترك العمل بحجة العبادة يُعَدُّ لوناً من ألوان التنطُّع فى الدين . فالعمل نفسه عبادة ، لأنه امتثال لأمر الله تعالى للإنسان بإعمار الأرض وصنع الحضارة فيها فى قوله : ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾[2] أى : طلب منكم عمارتها .

وعمارة الأرض لا تتحقق إلا بالعمل الدؤوب ، وبذل الجهد ، والسعى فى الأرض بحثاً عن خيراتها ، واستخراجاً لمعادنها ، وتمهيداً لطرقها ، واستزراع كل شبر صالح للزراعة فيها ، وغير ذلك من مسئوليات عديدة اختص الله بها الإنسان وحده فى هذا الوجود . ومن أجل ذلك سخَّر الله له الكون بأرضه وسمائه وما بينهما وجعل ذلك كله مجالاً لنشاطه العقلى والبدنى على السواء ، وعلى الإنسان أن يحقق مشيئة الله من ذلك كله بما وهبه من قوى وقدرات ، وبما أنعم عليه من مواهب ومَلَكات .

وتقديراً من النبى ﷺ للعمل وحثًّا عليه وجدناه - كما جاء فى المرويَّات - يمتدح اليد العاملة ، ويصفها بأنها يد يحبها الله ورسوله

(١) الجامع لمحمد بن راشد - ج ١١ ص ٢٤٤ .
(٢) سورة هود : ٦١ .

وأنها يد لا تمسُّها النار أبداً [1] . كما ينبه إلى أن الإيمان دون عمل لا خير فيه . فالإيمان - كما يقول فى حديث شريف - ليس بالتمنِّى ولكن ما وقر فى القلب وصدَّقه العمل [2] . وتأكيداً لذلك نجد ارتباط الإيمان بالعمل الصالح فى معظم الآيات التى تتحدث عن الإيمان . والعمل الصالح مفهوم شامل لكل الأعمال النافعة للإنسان فى دنياه وأخراه .

وإذا كان هذا هو الأساس الدينى لقيمة العمل وأهميتها فى حياة الناس . فإن العقل والمنطق يؤكدان هذه النظرة الدينية ويدعِّمانها . فالإنسان صانع الحضارة لا يمكن أن يصل إلى هدفه إلا ببذل كل الجهود الممكنة لتحويل تصوراته إلى عمل ، وترجمتها إلى واقع ملموس يكون له أثره فى دفع عجلة الحياة وإثرائها وترقيتها إلى ما فيه الخير للبشرية جمعاء .

والعمل المطلوب ليس أى عمل ، ولكنه العمل المنتج المفيد ، ولن يكون كذلك إلا إذا كان عملاً متقناً . والعمل المتقن نابع من الإخلاص فيه والتفانى فى إنجازه . وفى ذلك من الخير ما فيه للعامل وللمستفيدين منه . وحثًّا على إتقان العمل والإخلاص فيه يقول النبى - عليه الصلاة والسلام - :

---

(١) تاريخ بغداد - ج ٧ ص ٣٤٢ ، والإصابة - ج ٣ ص ٨٦ .
(٢) راجع : كنز العمال - المتقى (١/ ٢٥) .

« إِنَّ اللهَ يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلاً أَنْ يُتْقِنَهُ » [1] .

ونحن فى عصرنا الحاضر - عصر العولمة الاقتصادية وإزالة الحواجز أمام تبادل السلع والمال والخدمات - نواجه تحدِّى الجودة فى المنتجات التى ندخل بها مجال المنافسة الشرسة التى سيشهدها العالم بعد انتهاء فترة السماح للدول النامية التى وقَّعت على اتفاقية التجارة العالمية .

ولا يجوز لنا - فى هذا الصدد - أن ننسى أن الفارق بين الدول المتقدمة والدول المتخلفة يتمثل فى أن الأولى تعمل بهمَّة ونشاط وجدٍّ وإتقان والأخرى يخيِّم عليها الكسل فى العمل ، والتراخى فى إنجازه ، والإهمال فى تجويده وإتقانه . وهذا يعنى أنها بذلك لن تستطيع أن تدخل حلبة المنافسة ، بل ستظل خارج إطار السباق العالمى معتمدة على غيرها حتى فى قُوتِها . وهذا يعنى - بالتالى - أن تظل قانعة بالعيش على هامش الحياة ، مفرِّطة فى استقلال قرارها وكرامة أبنائها . وهذا أسوأ ما تُبتلى به دولة فى عالمنا المعاصر .

إننا فى عالمنا الإسلامى مُطالَبون بأن نعمل ونواصل العمل بلا كلل حتى إذا قامت الساعة - كما ورد فى الحديث الشريف [2] - مادمنا قادرين على العمل . فالقضية قضية مصير ولا خير فى أمة تفرِّط فى مصيرها الذى يجرُّها إلى الانزواء والمزيد من التخلف وفقدان الهوية .

---

(١) كتاب مجمع الزوائد - ج ٤ ص ٩٨ .

(٢) رواه الإمام أحمد فى مسنده - ج ٣ ص ١٨٤ .

وهذا - بطبيعة الحال - لا يليق بأمة مثل الأمة الإسلامية ، لها رصيدها الحضارى الذى يعرفه التاريخ . ومن هنا فإن عليها أن تبادر بتغيير أحوالها ، وتصحيح أوضاعها ، وإزالة الغبار وأوزار التخلف عن كاهلها ، حتى تستعيد الثقة بنفسها ، وتستعيد دورها الحضارى ، وتشارك بفاعلية فى تشكيل عالمنا الجديد . وهذا أمل نرجو أن يترجم إلى برنامج عمل ، فالله لا يغيِّر ما بقوم حتى يغيِّروا ما بأنفسهم ، كما أنه سبحانه وتعالى لا يُضيع أجرَ مَنْ أحسنَ عملاً .

* * *

## (١٠)
# قيمة الحرية

الحرية حق من حقوق الإنسان التى لا جدال فيها والتى لا يجوز المساس بها أو مصادرتها دون وجه حق . ونقيض الحرية هو العبودية. وليس من حق أحد أن يستعبد الناس ويسخِّرهم لأغراضه ويسلبهم حقهم المشروع فى الحرية وفى اختيار ما يريدون دون ضغط أو إكراه . ومن هنا كانت مقولة عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - :

« مَتَى اسْتَعْبَدْتُمُ النَّاسَ وَقَدْ وَلَدَتْهُمْ أُمَّهَاتُهُمْ أَحْرَاراً ؟ » (١) .

ولكن هذا الحق المشروع للإنسان ليس حقًّا مطلقاً ، ولا يمكن أن يكون حقًّا مطلقاً . فالمرء لا يعيش وحده فى هذا العالم ، بل يشاركه فيه غيره من الناس الذين لهم أيضاً حقهم المشروع فى الحرية مثله تماماً . ومن هنا كان لابد من التوفيق بين هذه الحقوق ، إذ لا يجوز أن يتمتع بهذا الحق فريق دون فريق ، فكلهم فى ذلك سواء بصرف النظر عن أجناسهم وأعراقهم ومعتقداتهم . فالاعتبار الإنسانى - وحده - هو المعيار .

---

(١) راجع : على الطنطاوى - أخبار عمر ، ص ١٨٢ وما بعدها - دمشق ١٩٥٩م .

وإذا كان الأمر كذلك - وهو كذلك بكل المقاييس الإنسانية والأخلاقية - فإنه لا يجوز أن يعتدى أحد على حق إنسان آخر بحجة أنه حر وأن من حقه أن يفعل ما يشاء . صحيح أنه حر يفعل ما يشاء ولكن بشرط ألَّا يكون فى ذلك اعتداء على حرية الآخرين وحقوقهم. وهذا يعنى أنه لا توجد فى الوجود حرية مطلقة للإنسان وإنما حرية منظَّمة تنظمها القوانين والقيم الأخلاقية والدينية ، ويقوم المجتمع والدولة على رعايتها وحراستها .

وقد وضع الإسلام فى ذلك قاعدة عامة تحكم العلاقات بين الناس فى هذا الصدد تتمثل فى أنه : « لَا ضَرَرَ وَلَا ضِرَارَ »[1] . فأى تصرُّف يصدر من الإنسان لابد أن يُراعَى فيه عدم الضرر بالآخرين ، فإذا تسبب فى ضرر ما للآخرين - بأى شكل من الأشكال - فلابد من الوقوف فى وجهه ومنع حدوثه مراعاة لحقوق الآخرين .

وقد كان الإسلام منذ اللحظة الأولى حريصاً كل الحرص على مراعاة شعور الغير لدرجة بالغة السموِّ تمثلت فى قول الرسول الكريم ﷺ : « إِذَا كُنْتُمْ ثَلَاثَةً فَلَا يَتَنَاجَى اثْنَانِ فِى حَضْرَةِ الثَّالِثِ فَإِنَّ ذَلِكَ يُحْزِنُهُ »[2] . لأن الثالث ربما يقع فى ظنه أنهما يتهامسان بشأنه أو لا يريانه

---

(١) رواه ابن ماجه فى كتاب الأحكام - باب (١٧) ، ومالك فى الموطأ كتاب الأقضية - باب ٢٩، والدارقطنى فى البيوع .

(٢) رواه البخارى فى كتاب الاستئذان - باب (٤٧) ، ومسلم فى كتاب السلام - باب (١٥) .

محلًّا للثقة أو غير ذلك من احتمالات ، وقياساً على ذلك ينبغى ألَّا يتحدث اثنان مع بعضهما بلغة لا يفهمها الثالث . أما إذا كان هناك أكثر من ثلاثة فإن الأمر قد يكون مختلفاً .

وهذه الإشارة إلى مراعاة شعور الغير إذا طبَّقناها فى حق الإنسان فى استعمال حريته فإن استعمال هذه الحرية ينبغى ألَّا يجرح شعور الغير أو يضرَّ به بأى شكل من الأشكال . وكل إنسان عاقل لا يجادل فى هذه القواعد المتعارف عليها . ويحرص الناس فى العالم المتقدم على عدم إزعاج بعضهم بعضاً ، وعلى احترام كل منهم لحق الآخر . ولذلك نجد الهدوء التام فى المساكن وفى الشوارع طوال اليوم . وليس من المعتاد أن يتصل أحد تليفونيًّا بغيره بعد العاشرة مساء إلا لضرورة ، ناهيك عن أن يكون هناك إزعاج من أى لون آخر . وهذا هو السلوك الحضارى الذى يلتزم به الجميع .

ونحن أصحاب الحضارة العريقة ، التى علَّمت الدنيا القيم والسلوك الحضارى ، جديرون بأن يكون سلوكنا حضاريًّا لا يقل عن هذا السلوك المشار إليه . ولكن الواقع المؤلم غير ذلك تماماً . فالتلوث السمعى والبصرى والمائى والهوائى ماثل أمامنا يوميًّا ، وذلك بالإضافة إلى التلوث الأخلاقى المتمثل فى الألفاظ الخارجة التى يسمعها الجمهور فى الشوارع باستمرار . وكل ذلك يحدث بأيدى المواطنين وسلوكهم ، وكأنه أمر مفروض علينا لا نستطيع أن نتخلص منه . ولو تجرَّأ أحد –

على سبيل المثال - وأبدى اعتراضه على ما يصدر عن الآخرين من ضجيج وإزعاج فإنه يسمع ما لا يسرُّه وتتردد عبارة : « أنا حر أفعل ما أريد » . وهذا هو المفهوم الخاطئ للحرية التى هى قيمة إنسانية سامية ودليل على كرامة الإنسان . ولكننا - للأسف الشديد - نُسىء استخدامها ونمتهن الكرامة الإنسانية التى من المفروض أن تكون هذه الحرية حامية لها . وكم من الجرائم تُرتكب باسم الحرية ؟ .

إن تدليل الأطفال مطلوب ، ولكن تعليمهم القيم واحترام الآخرين مطلوب أيضاً . ولا يُعقل أن تكون الأنانية هى التى تتحكم فى سلوكنا ، وتجعل المرء يتصرف وكأنه وحده فى هذا العالم . وكأن لسان حاله يقول : أنا ومِنْ بعدى الطوفان . والقرآن يقول لهؤلاء :

﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ (١) .

إننا فى أشد الحاجة إلى العودة إلى تقاليدنا العريقة ، وقيمنا النبيلة، وأخلاقنا التى - بدونها - لن نستطيع أن نحافظ على تماسك مجتمعنا وتعاون أفراده فيما بينهم من أجل خير بلادنا وتقدُّمها وازدهارها .

* * *

(١) سورة لقمان : ١٨ .

## (١١)
# قيمة الأمن

من أعظم النعم التى أنعم الله بها على الإنسان فى هذه الحياة نعمة الأمن التى بدونها لا يمكن أن يهدأ للإنسان بال أو يشعر بالاطمئنان أو ينعم بالاستقرار . ولن تتحقق هذه القيمة الجليلة إلا إذا أمن الإنسان على حقوقه الإنسانية الأساسية . ومن أجل ذلك شُرعت القوانين التى تحمى هذه الحقوق وتضمن تحقُّقها للأفراد والجماعات . ونظراً لما لهذه الحقوق الأساسية للإنسان من أهمية بالغة أُطلق عليها فى الشريعة الإسلامية لفظ «الضروريَّات» ، وجعلت مقاصد أساسية للشريعة الإسلامية . وتتمثل هذه الضروريات فى حفظ النفس والدِّين والعقل والمال والنسل . وهذا يعنى أن الشروط الضرورية لتحقيق الأمن للفرد تتمثل فى أن يكون آمناً على حياته ، وعلى عقيدته التى يَدين بها ، وعلى عقله الذى يفكِّر به ، وعلى ممتلكاته الخاصة ، وعلى أسرته .

فالأمن على النفس يعنى عدم جواز الاعتداء عليها - بأى شكل من الأشكال - ما دام لم يرتكب الفرد جُرْماً من الجرائم التى تستحق

العقاب . واحترام الإسلام للنفس الإنسانية لا يقتصر على دائرة المسلمين فحسب ، بل يتعداها إلى كل نفس إنسانية بصرف النظر عن الجنس أو اللون أو المعتقَد . ومن هنا جعل الإسلام الاعتداء على فرد واحد بغير حق بمثابة اعتداء على الإنسانية كلها - كما يقرر القرآن الكريم ذلك فى صراحة ووضوح فى قوله تعالى :

﴿ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ (١) .

ولا يتعلق الأمر بالاعتداء المتمثل فى القتل فقط ، بل ينسحب حتى على مجرد التخويف أو التهديد أو الترويع بأى شكل من الأشكال .

ولا يقتصر احترام الإسلام للنفس الإنسانية فى حال حياتها فقط ، بل يمتد إليها فى حال مماتها أيضاً . ومن المرويَّات عن النبى ﷺ فى هذا الصدد أنه كان جالساً ذات يوم مع صحابته فمرَّت أمامهم جنازة فقام واقفاً احتراماً للميت . فقال له بعض الصحابة إنها جنازة يهودى. فرد قائلاً : أَلَيْسَتْ نَفْساً ؟ (٢) .

أما الأمن على العقيدة فإنه يعنى عدم جواز إرغام أحد على الدخول فى دين من الأديان أو الخروج منه ، لأن الأكراه على اعتناق دين من الأديان من شأنه أن يولِّد منافقين لا مؤمنين . ومن هنا كان المبدأ

---

(١) سورة المائدة : ٣٢ .

(٢) رواه البخارى فى صحيحه - كتاب الجنائز - باب (٤٩) .

القرآنى الواضح فى حرية العقيدة ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِى الدِّينِ ﴾ [1] .

ويعنى الأمن على العقل ضمان أدائه لوظيفته المتمثلة فى التفكير وما يرتبط به من عمليات عقلية . وهذا يعنى أنه لا يجوز إعاقته عن أداء هذه الوظيفة بأى صورة من الصور . ومن أجل ذلك يحمى الإسلام حرية الرأى والفكر ما دامت لا تضرُّ بمصالح المجتمع ولا بالنظام العام للدولة ، كما يرفض الإسلام التقليد الأعمى للآخرين فى كل ما يقولون أو يفعلون ، لأن فى ذلك إلغاء للعقل الذى به تتحقق إنسانية الإنسان .

أما الأمن على المال فإنه يعنى حماية الملكية الخاصة من الاعتداء عليها بالغصب أو السرقة أو بأى وسيلة أخرى . ومن هنا يَعتبر الإسلام مَنْ يُقتل دفاعاً عن ماله أو دمه أو عرضه من الشهداء . فالمال شأنه شأن كل ما يخصُّ الإنسان فى حياته ودينه وعقله لا يجوز المساس به أو الإضرار به . ويجب أن يكون كل فرد آمناً على ممتلكاته حتى يتفرغ لأداء مسئولياته فى المجتمع . ولا يكتمل تحقيق الأمن للإنسان إلا إذا كان آمناً - بالإضافة إلى ما تقدَّم - على أسرته وعلى حُرُماتها وصيانتها من أى عدوان عليها بأى شكل من الأشكال.

ومن ذلك يتضح أنه إذا توافر للفرد الأمن على هذه الكليَّات

---

(١) سورة البقرة : ٢٥٦ .

الخمس الضرورية فإن ذلك من شأنه أن يوفر له الاطمئنان والاستقرار فى حياته ، ويتيح له الفرصة للعمل والإنتاج والإبداع فى المجال الذى يتفق مع مواهبه وقدراته ومؤهلاته ، وينعكس ذلك بالتالى بشكل إيجابى على المجتمع بأسره .

وهذه الصورة المثالية للأمن بالنسبة للإنسان على المستوى الشخصى وعلى مستوى المجتمع تفوق كل الصور المثالية التى راودت أحلام الفلاسفة والمفكرين فى كل العصور ، وذلك لأن هذا التصور الإسلامى غير منفصل عن الواقع من ناحية ، ومن ناحية أخرى يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالإيمان الذى يدعمه ويسانده ويشجع على تحقيقه ، بل يعتبر تحقيقه فى النهاية تحقيقاً للمشيئة الإلهية من خَلْق الإنسان الذى جعله الله خليفة فى الأرض وحمَّله مسئولية عمارتها ماديًّا ومعنويًّا .

ولكن تحقيق الأمن المنشود لا يُعطَى مجَّاناً ، بل إنه يتطلب تحطيم العديد من العقبات التى تقف أمام الإنسان من أجل الوصول إليه . فلا يخلو أى مجتمع من المجتمعات من الأشرار والمفسدين الذين لا همَّ لهم إلا ممارسة البلطجة وترويع الآمنين وإرهاب المسالمين . وفى كثير من الأحيان يلجأ هؤلاء إلى إضفاء الصبغة الدينية زوراً وبهتاناً على باطلهم الذى لا يمتُّ بصلة إلى الدين .

ومن أجل ذلك فإن على المجتمع أن يعمل على قطع الطريق أمام

هؤلاء حتى يتحقق الأمن للجميع ، ويعيش الناس فى مجتمع نظيف وبيئة صالحة ينعم فيها الجميع بحياتهم ويسعدوا بدنياهم ، وفى الوقت نفسه يكونون قادرين على تحمُّل مسئولياتهم نحو أنفسهم وذويهم ومجتمعهم وأوطانهم ونحو ربهم الذى لا يغيِّر ما بقوم حتى يغيِّروا ما بأنفسهم .

* * *

## (١٢)
# قيمة الأمانة

تُعَدُّ الأمانة من الفضائل الرئيسية والقيم المهمة فى حياة الأفراد والجماعات . وقد اهتم الإسلام بها اهتماماً بالغاً إلى الحد الذى جعلها صنواً للدين وعلامة على الإيمان ، بمعنى أن غيابها يعنى فى الوقت نفسه غياب الإيمان . ولا غرابة فى ذلك ، فهما مشتقان من أصل لغوىٍّ واحد . وفى هذا السياق جاء الحديث النبوى الشريف : «**أَلَا إِنَّهُ لَا دِينَ لِمَنْ لَا أَمَانَةَ لَهُ ، وَإِنْ صَامَ وَصَلَّى**»[١] . وقد قال النبى ﷺ ذلك فى معرض إجابته على سؤال عن أشد شىء فى هذا الدِّين وألينه . فأجاب بقوله :

« **أَلْيَنُ شَىْءٍ فِى هَذَا الدِّينِ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ ، وَأَشَدُّهُ الأَمَانَةُ** » ... إلخ .

وإذا كان الدين والأمانة صنوان لا يفترقان - كما سبق أن أشرنا - فإن من علامات النفاق خيانة الأمانة ، كما أشار إلى ذلك الحديث النبوى عند الإشارة إلى علامات المنافق أنه « **إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ** »[٢] .

---

(١) رواه الإمام أحمد فى مسنده ، من حديث أنس بن مالك .
(٢) رواه مسلم فى صحيحه - كتاب الإيمان - باب (٢٥) .

ويرتبط بخيانة الأمانة العديد من الرذائل التى تحطُّ مِنْ قَدْر الإنسان أمام نفسه وأمام الناس وأمام الله .

وقد كان النبى - عليه الصلاة والسلام - فى حياته فى مكة قبل البعثة مشهوراً بين قومه بأنه « **الصَّادق الأمين** » . ومن أجل ذلك كان يستأمنه الناس على أماناتهم ، سواء كانت أموالاً أو منقولات أو غير ذلك ، حتى بعد البعثة . وعندما هاجر إلى المدينة أوصى علىَّ بن أبى طالب أن يردَّ الأمانات التى كانت مودعة لديه إلى أصحابها حتى لو كانوا مشركين . والأمانة من القيم التى لا تتجزأ ، ولا تقبل أنصاف الحلول . فإما أمانة وإما خيانة ولا ثالث لهما .

والأمانة لها صور عديدة تشمل كل مجالات الحياة . وعلى رأس قائمة الأمانات تأتى الأمانة الكبرى التى اختارها الإنسان لنفسه ، والتى تعنى مسئوليته عن الوفاء بالتزامات التكليف الإلهى المنوط به فى هذا الوجود . فالقرآن الكريم يبيِّن لنا أن الله سبحانه عرض هذه الأمانة على السموات والأرض والجبال فلم تطق أىٌّ منها تحمُّل هذه الأمانة وقَبِلَها الإنسان ، وأصبح الإنسان بذلك مسئولاً عن هذا الوجود الذى سخَّره الله له بأرضه وسمائه وما بينهما . وهى مهمة ثقيلة ومسئولية ضخمة . ومنها تتفرع بقية الأمانات الأخرى .

ومن صور الأمانة - على سبيل المثال لا الحصر - الأمانة على الأموال والأعراض ، والأمانة على شعائر الدين وتعاليمه ، والأمانة

على العلم ، والأمانة على حفظ الأسرار وعدم إفشائها ، والأمانة على الأسرة والحرص على رعايتها رعاية تامة ، والأمانة على البيئة وعدم تلويثها ، وعلى الصحة وعدم الإضرار بها ، وعلى الحياة وعدم تعريضها للخطر ، وعلى العقل وعدم تغييبه عن الوعى بأى شكل من الأشكال ، والأمانة على الوطن وعدم تعريض أمنه للخطر ... إلخ .

وهذه كلها أمانات سوف يُسأل عنها الإنسان يوم القيامة . ومن ذلك ما جاء فى الحديث النبوى الشريف :

« لَا تَزُولُ قَدَمُ ابْنِ آدَمَ يَوْمَ القِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعٍ : عَنْ عُمْرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ ، وَعَنْ شَبَابِهِ فِيمَا أَبْلَاهُ ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَا أَنْفَقَهُ، وَعَنْ عِلْمِهِ مَاذَا عَمِلَ بِهِ » (١) .

كما أن الإنسان سوف يُسأل كذلك عن سمعه وبصره وعقله ماذا فعل بها ، فكلها أمانات لديه . وفى ذلك يقول القرآن الكريم :

﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ﴾ (٢).

ويمكن تلخيص صور الأمانة فى أربعة دوائر : أمانة فردية تتعلق بالفرد ذاته فيما بينه وبين نفسه ، وأمانة اجتماعية تتعلق بصلة الإنسان بالآخرين قريبين كانوا أم بعيدين ، وأمانة دينية تتعلق بصلة الإنسان

(١) انظر تخريج الحديث فى هامش ص ١٥٥ .
(٢) سورة الإسراء : ٣٦ .

بالله ، وأمانة عامة تتعلق بصلة الإنسان بالكون الذى يعيش فيه وبما فيه من كائنات حية أو غير حية . وكل هذه الأمانات تتكامل مع بعضها ولا تتعارض .

ومن أبرز الأمثلة على الأمانة فى العبادات الأمانة فى عبادة الصوم. فليس هناك من يطَّلع على الوفاء بها إلا الله وحده . فالإنسان يستطيع أن يأكل ويشرب ثم يخرج على الناس مدَّعياً الصوم مع أنه قد خان هذه الأمانة . ومن أجل ذلك يُعَدُّ الصوم سرًّا من الأسرار التى بين الله والعباد ، فهو عبادة خالصة لله تعالى كما جاء فى الحديث القدسى : «الصَّوْمُ لِى وَأَنَا أَجْزِى بِهِ »[1] . ويُعَدُّ الصوم فى الوقت نفسه تدريباً لإرادة الإنسان على الالتزام بالأمانة والقيام بحقها .

ومن كل ما تقدم يتضح لنا أن الإسلام قد جعل من الأمانة قيمة مركزية وفضيلة محورية لدرجة أن قيام الساعة ونهاية الدنيا مرهون بمدى الالتزام بالوفاء بالأمانات فى هذه الحياة . ومن أجل ذلك يقول الرسول الكريم ﷺ : « إِذَا ضُيِّعَتِ الأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ »[2] . ويعنى ذلك أن ضياع الأمانة يُعَدُّ علامة من علامات قيام الساعة وفناء العالم. وهذا يبيِّن لنا الأهمية الكبرى لهذه القيمة المتغلغلة فى كل أمور حياتنا صغيرة كانت أم كبيرة ، فردية أم اجتماعية ، دينية أم دنيوية. والوعى

---

(١) رواه البخارى فى كتاب التوحيد باب (٢٥) ، ومسلم فى كتاب الصيام باب (٣٠) .

(٢) رواه البخارى فى كتاب الرقاق باب (٢٥) . والإمام أحمد فى مسنده من حديث أبى هريرة .

بذلك كله من شأنه أن يَحملنا على الوفاء بمسئوليات هذه الأمانة ، والعمل على غرسها فى نفوس الأجيال . فهى جوهر الدِّين ولُبُّ الأخلاق . والحفاظ عليها يعنى - فى الوقت نفسه - الحفاظ على كل القيم النبيلة والفضائل الكريمة ، ويعنى الحفاظ على استمرار الحياة واستقامة السلوك ، ونشر كل قيم الحق والخير والجمال فى كل مكان .

* * *

# (١٣)
# قيمة الوفاء

من القيم المهمة التى لها أثرها العميق ودورها الكبير فى حياة الناس أفراداً وجماعات وأمماً وشعوباً قيمة « الوفاء » . ولم يكن العرب قديماً على صواب حينما جعلوا الوفاء ، وبخاصة فى محيط الأصدقاء ، من بين المستحيلات الثلاثة التى قصدوا بها الغول والعنقاء والخِلّ الوفىّ . فهذه نظرة تشاؤمية لا تليق بالإنسان من حيث هو إنسان ، ولا يجوز تعميمها على هذا النحو بناء على بعض خبرات فردية لا تَرْقَى إلى أن تكون قاعدة عامة .

وانطلاقاً من الأهمية القصوى لقيمة الوفاء فى بناء العلاقات الإنسانية بين الأفراد والجماعات وعلاقات الشعوب بعضها مع بعض اهتم الإسلام بها اهتماماً لا حدود له . وقد جاء استعمال مفهوم الوفاء فى القرآن الكريم على أنحاء مختلفة . فتارة يأتى وفاء بعهد الله، وتارة وفاء بالعهد على نحو مطلق وعام ، وتارة يأتى وفاء بالعقود ، أو وفاء فى الكيل والميزان ، أو وفاء بالنذر ، كما يأتى فى مقابل نقض المواثيق .

وهذا يدلنا على اتساع مساحة الوفاء . فليس الأمر يتعلق بعلاقة بين صديقين فحسب ، وإنما الأمر يشمل جميع العلاقات بين الأفراد والجماعات والشعوب ، ويتجاوز الدائرة الضيّقة بين فردين إلى دائرة أوسع تشمل الإنسانية كلها .

ويدخل فى إطار الوفاء المطلوب الوفاء لماضى الأمة وتراثها وتاريخها . فلا يجوز للمرء أن يتنكر لماضيه ، فالذى ليس له ماضٍ لا مستقبل له . ولسنا نعنى بالوفاء لماضى الأمة وتراثها تقديس هذا الماضى وتبرئته من كل العيوب ، وإنما المقصود هو ألّا يفصل المرء بين يومه وأمسه ، فالزمن حلقات متصلة . ومن أجل ذلك لا يجوز أن تكون هناك قطيعة مع هذا الماضى لأنه يشتمل على الجذور ، وفصل جذور الشجرة عن ساقها يميتها . الوفاء للماضى - إذن - يعنى الحفاظ على الهوية وتنمية الإيجابيات التى يشتمل عليها الماضى وتجنُّب السلبيات ، بالإضافة إلى مراعاة متغيرات العصر . وهذا ما يمكن أن نطلق عليه « الجمع بين الأصالة والمعاصرة » .

ويدخل فى مفهوم الوفاء - أيضاً - الوفاء لعلماء الأمة ومفكِّريها وعظمائها ممن قدَّموا للوطن خدمات جليلة . والوفاء لهم يكون بإحياء ذكراهم والاعتراف بفضلهم ، وتعريف الأجيال الجديدة بجهودهم وتضحياتهم وعطائهم . وبذلك نقدم لهذه الأجيال نماذج مشرقة

يقتدون بها ، ويحذون حذوها فى البذل والعطاء مما يعود بالخير على الوطن والمواطنين .

ويرتبط الوفاء فى التصور الإسلامى بالصدق وبالتقوى . ومن هنا جاء حديث القرآن الكريم فى وصف الموفين بعهدهم والصابرين بأنهم الذين صَدَقُوا وبأنهم المتَّقون : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ (١) . وإذا كان الوفاء بالحقوق والعهود والمواثيق أمر يحتِّمه الإسلام فإنه لا يفرِّق - فى هذا الصدد - بين المسلمين وغير المسلمين . فالقيم لا تتجزأ ولا يجوز أن تُطبَّق بطريقة انتقائية .

ومن الطبيعى أن يكون الوفاء علاقة تبادلية . فكما تتوقع منى أن أكون وفيًّا معك يجب أن تكون وفيًّا معى أيضاً ، وإلا فمن غير المنطقى ومن غير المعقول أن تطلب من الآخر أن يكون وفيًّا لعهودك وفى الوقت نفسه لا تفى أنت له بعهد ولا ذمَّة . وفى ذلك يقول القرآن: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِى أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾ (٢) .

ويضع القرآن الكريم أمامنا أسمى نموذج فى الوفاء متمثلاً فى وفاء الله بعهده لعباده : ﴿ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ﴾ (٣) . فليس هناك فى حقيقة الأمر من يستطيع الوصول إلى هذه المرتبة العليا فى الوفاء

(١) سورة البقرة : ١٧٧ .
(٢) سورة البقرة : ٤٠ .
(٣) سورة التوبة : ١١١ .

المطلق. ولكن ليس معنى ذلك ألا نبذل قصارى جهدنا فى السعى الحثيث نحو الوصول إلى هذه الغاية . فالمثل العليا تمثل - بالنسبة لنا - نماذج قصوى ينبغى أن نسير على هداها وأن نقتدى بها فى سلوكنا وفى كل ما يصدر عنا من أقوال وأفعال .

والقيمة السلبية المقابلة للوفاء هى الغدر والجحود ، ونكران الجميل ونقض العهود والمواثيق . ومن هنا جعل النبى - عليه الصلاة والسلام - خُلْفَ الوعد وعدم الوفاء به علامة من علامات النفاق [1] ، بل يصل الأمر إلى ما هو أبعد من ذلك بانتفاء صفة الدين عمَّن لا يفى بعهده - كما جاء فى الحديث الشريف - « لَا دِينَ لِمَنْ لَا عَهْدَ لَهُ » [2] . ومن شأن عدم الوفاء على النحو المشار إليه أن يدمر العلاقات بين الناس أفراداً كانوا أم جماعات .

صحيح أن البشر ليسوا ملائكة ، ولا يمكن أن نكون من السذاجة بحيث نعتقد أن المجتمع - أىّ مجتمع - يخلو من الشرّ ومن الأشرار. ولكن المبالغة المفرطة فى هذا الصدد غير مقبولة ، ومن شأنها أن تهدم العلاقات الإنسانية ، وتجعل كل فرد ينظر إلى الآخر نظرة توجُّس وخوف ، كما نجد ذلك عند الفيلسوف الإنجليزى «توماس هوبز» الذى ذهب إلى القول بأن « الإنسان ذئبٌ بالنسبة لأخيه الإنسان » وأن « الكُلَّ فى حرب ضِدَّ الكُلِّ » [3] .

---

(١) رواه البخارى فى صحيحه - كتاب الإيمان - باب (٢٤) .

(٢) الأحاديث المختارة للإمام أبى عبد الله المقدسى ج ٧/ ٢٢٤ - حديث رقم ٢٦٦٣ .

(٣) راجع ص ٤٩ ، ١٥٦ من هذا الكتاب .

وإذا كان الإسلام حريصاً على الوفاء بالعهود بين الله والعباد فإنه حريص أيضاً - بنفس القدر - على الوفاء بالعهود بين الأفراد والجماعات ، وبين الأمم والشعوب حتى يعمَّ الأمن والسلام والاستقرار المجتمع كله ، ويسود الوئام بين الناس . فلا يمكن أن يتصور المرء مجتمعاً مستقرًّا وآمناً دون أن يكون هناك وفاء ، أى : التزام أخلاقى بين الناس من شأنه أن يبعث الثقة فى النفوس والاطمئنان فى القلوب حتى ينصرف الناس إلى أعمالهم وتحمُّل مسئولياتهم فى مناخ يتفق مع إنسانية الإنسان .

* * *

## (١٤)
# قيمة النظام

من بين القيم التى كادت أن تختفى من حياتنا قيمة النظام . وغياب هذه القيمة من شأنه أن يؤدى إلى أن تصبح الحياة خليطاً عجيباً من الفوضى والاضطراب على العديد من المستويات . والفوضى بمعنى فقدان النظام تعنى التخلف والانفلات من كل القيم المرعية والنظم السارية . وعندما يغيب النظام يسود الارتجال والعشوائية والتخبط والبلطجة ، ويؤدى ذلك إلى اختلال الموازين فى المجتمع وضياع الحدود بين الحقوق والواجبات وبين ما يجوز وما لا يجوز .

وهناك مئات الأمثلة فى حياتنا الشخصية والجماعية لأساليب التملُّص من النظام ، وبعيداً عن الأمثلة الصارخة فى هذا الصدد نود أن نشير هنا إلى مثال واحد فقط لما اعتاد عليه غالبية الناس من تحديد للمواعيد التى يعطيها كل منهم للآخر لإنجاز أعمال معينة أو مصالح مشتركة أو غير ذلك من أمور حياتية . فالبعض يحدد موعداً فى ساعة معينة ، ولكنه غالباً لا يلتزم بالموعد المحدد ، فقد يأتى بعد الموعد بساعة أو بساعتين أو أكثر ، وقد لا يأتى ، والبعض الآخر لا يحدد

ساعة معينة ، بل يعطى الموعد فى جزء من اليوم : بعد الظهر أو آخر النهار أو بعد العشاء .. إلخ ، حتى يعطى لنفسه فسحة من الوقت لاتقيده بالالتزام بساعة معينة ، ولا يهمه بعد ذلك ما يسببه هذا التصرُّف للطرف الآخر من متاعب نفسية وأضرار مادية .

وهذا يعنى أن حياة الناس تسير دون نظام يضبط حركتها ، فكل شىء يسير ( بالبركة ) كما يتشدق البعض بذلك ، ويعنى أيضاً فوضى فى التعامل وخللاً فى السلوك وفقداناً للثقة بين الناس فى المواعيد والوعود . وفى كل ذلك تعطيل للمصالح وإهدار للوقت والجهد وإلحاق الضرر بالمجتمع بصفة عامة .

وعندما يلفت المرء نظر البعض إلى ضرورة الالتزام بالنظام فى العمل أو فى المواعيد أو فى البيت أو فى المدرسة .. إلخ يسمع عبارات مثل : « خلِّيها على الله » ، أو « خلِّيها تمشى بالبركة » أو «بلاش تحبكها قوى » أو « ما تبقاش حنبلى » وغير ذلك من عبارات مشابهة لتبرير الخلل فى الفكر وفى السلوك .

والحق أن الله تعالى قد خلق الوجود على نظام محكم وجعله يسير وفقاً لقوانين لا تتخلَّف . ومن هنا فالله لا يرضى لعباده الفوضى ولا الارتجال والعشوائية . والعمل الخالى من النظام خالٍ تماماً من البركة التى يتعلَّل بها البعض .

إن الإنسان كائن اجتماعى يعيش مع الآخرين وبالآخرين . ومن أجل ذلك شُرعت القوانين المنظِّمة للحقوق والواجبات فى المجتمعات البشرية لتشكِّل - مع القواعد الأخلاقية الفطرية والقيم الدينية - صمام الأمان والاستقرار فى المجتمع ، والهدف من ذلك كله هو مصلحة الناس ومساعدتهم على إقامة مجتمع يتعاون أفراده فيما بينهم من أجل خير هذا المجتمع وتقدُّمه وازدهاره .

ولا يمكن أن يتصور المرء حضارة من الحضارات دون نظام يحدد الإطار العام الذى يجوز لكل فرد فى المجتمع أن يمارس فيه حياته وحريته دون إضرار بالآخرين . ومن هنا حرص الدِّين - كل الحرص - على أن يغرس فى نفوس الناس حب النظام ، وأن يدربهم عليه حتى يصير سلوكاً حياتيًا لهم . فإذا نظرنا - مثلاً - إلى بعض العبادات فى الإسلام نجدها ترسم لنا صورة مُثلى فى النظام ، فالصلاة - على سبيل المثال - لها أوقات محددة لأدائها ومعروفة بكل دقة ، ولها نظام مخصوص لا يجوز الخروج عنه أو الزيادة أو النقصان فيه . وإذا وقف الإمام فى محرابه ليؤمَّ الناس فى الصلاة سمعناه يقول : « سَوُّوا صفوفكم ؛ فإن تسوية الصفوف من تمام الصلاة .. إن الله لا ينظر إلى الصَّفِّ الأعوج » . وهذا النظام المحكم فى الصلاة وقوفاً وركوعاً وسجوداً وجلوساً ...إلخ - خمس مرات يوميًا - هو درس فى الانضباط فى الحياة ، وكذلك الشأن فى بقية العبادات .

وقد أدرك قادة الثورة المصرية عام ١٩٥٢م الأهمية البالغة لقيمة النظام فى حياة المجتمع فجعلوها أحد عناصر الشعار الثلاثى الذى رفعته الثورة آنذاك وهو : ( الاتحاد ، والنظام ، والعمل ) . ولكن الأمر الأهم من رفع الشعارات الجميلة هو تفعيلها وتحويلها إلى واقع حياتىّ ملموس يتحقق بالتغيير الحقيقى لأنماط السلوك فى المجتمع إلى ما ينبغى أن يكون .

إن النظام هو الحياة الصحيحة بكل ما تعنيه من تخطيط سليم وتحضُّر ورقىٍّ فى الفكر وفى السلوك . وكما يكون التخطيط على مستوى الدولة يكون كذلك على مستوى الأفراد : فكل فرد مسئول عن التخطيط لحياته واتخاذ الوسائل الصحيحة للوصول إلى الأهداف المرجوَّة . والنظام هو أقصر الطرق بين الآمال والطموحات وبلوغ الأهداف . فالنظام يوفر الكثير من الجهد والوقت والمال ، ويجعل الحياة أكثر بهجة وأكثر ثراء ، ويحيى الأمل فى النفوس فى مستقبل مشرق ينعم فيه الأفراد والجماعات بالخير والسعادة .

***

## (١٥)
# قيمة الوقت

من بين القيم المنسية فى حياتنا - على الرغم من أهميتها البالغة - فى حياة المجتمع ورقيِّه وتقدُّمه - قيمة الوقت ، تلك القيمة التى نتعامل معها - للأسف الشديد - بطريقة خاطئة . فنحن فى حياتنا اليومية نضيِّع الكثير من أوقاتنا ، أو - بمعنى أدق - نقتلها ونبدِّدها ونهدرها فيما لا يفيد ، مع سبق الإصرار والترصُّد ، كما لو أن أوقاتنا عدوٌّ لابد أن نقتله ونتخلص منه . ومن ناحية أخرى فإننا لا نفرِّق كثيراً بين أوقات الجِدِّ وأوقات اللهو ، بل نخلط بينهما ، الأمر الذى يجعل حياتنا تسير دون نظام يحكم سيرها ويضبط حركتها .

ومن المناظر المألوفة أن يرى المرء الجموع الغفيرة من الناس القادرين على العمل تكتظ بهم المقاهى ليلاً ونهاراً ويضيِّعون أوقاتهم فيما لا طائل من ورائه . وقد عبَّر العالم الدمشقى المعروف «جمال الدين القاسمى» عن حسرته على أوقات الناس المهدرة دون وعى بقيمتها بقوله : كم أتمنى أن يكون الوقت مما يُباع لأشترى من هؤلاء الناس أوقاتهم لأنفقها فيما يفيد .

إن الوقت قيمة من القيم الحضارية الأساسية التى نبّه إليها الدين وحضّ على الالتزام بها وحسن التصرف فيها . وقد أقسم الله بالوقت فى العديد من آيات القرآن الكريم ليبيِّن لنا مدى الأهمية البالغة لهذه القيمة فى حياة الإنسان . وقد جاء القَسَم فى هذه الآيات بالفجر وبالضحى وبالعصر وبالليل وبالنهار ، وكلها تمثل أجزاء من الوقت . والله لا يقسم بشىء دون أن تكون هناك حكمة بالغة وراء ذلك يُراد تعليمها للناس .

وفى أمثالنا الشائعة التى ورثناها عن الأسلاف نقول : « الوقت كالسيف إنْ لم تقطعه قطعك » وكذلك « الوقت من ذهب » . وهذا يعنى ضرورة شغل أوقاتنا بالعمل المفيد المنتج ، أو - بالتعبير القرآنى - بالعمل الصالح بمعناه الواسع الشامل الذى يشمل كل عمل يقوم به الإنسان فى هذه الحياة ، دينيًا كان هذا العمل أو دنيويًا ، طالما قصد به المرء وجه الله ونفع الناس ودفع الأذى عنهم .

إن الوعى بالزمن من شأنه أن يؤدى إلى الاستغلال الأمثل للوقت فى كل مجالات الحياة ، إذ بدون ذلك لا تقوم حضارة ، ولا يُتصوَّر أن يكون هناك أى شكل من أشكال التقدم فى حياة الإنسان . ومسئولية الإنسان الحضارية فى هذا الوجود تحتِّم عليه أن يكون أميناً فى تحمُّل هذه المسئولية ليحقق ذاته ويؤكد هويته الإنسانية من ناحية، وليكون جديراً فى الوقت نفسه بشرف خلافته لله فى الأرض من أجل إعمارها

بالخير فى جميع المجالات من ناحية أخرى . وهذا أمر لن يتحقق إلا بالتوظيف الأمثل لقيمة الوقت .

وتأكيداً على أهمية الوقت والحفاظ عليه يخبرنا النبى ﷺ بأن الوقت يدخل ضمن المسئوليات الكبيرة التى سوف يُسأل عنها الإنسان يوم القيامة ، وذلك فى إشارته إلى أن الإنسان سوف يُسأل «عَنْ عُمْرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ» . وعمر الإنسان هو مجموع أوقاته ، وهو حياته كلها فى هذه الدنيا . وقد عبَّر عن ذلك أمير الشعراء أحمد شوقى بقوله:

دَقَّاتُ قَلْبِ المَرْءِ قَائِلَةٌ لَهُ  إنَّ الحَيَاةَ دَقَائِقٌ وَثَوَانِ

فكل لحظة تمر على الإنسان من عمره القصير دون أن يستفيد منها أو يُفيد غيره تُعَدُّ لحظة ضائعة . والزمن الذى يمضى لن يعود مرة ثانية ، ولن ينفع ندم المرء على عدم استغلال أوقاته الاستغلال الأمثل. فلا أحد يستطيع أن يُعيد عقارب ساعة الزمن إلى الوراء .

ونظراً إلى أن الوقت هو الوعاء الذى يمارس فيه الإنسان نشاطه فى الحياة فإن ذلك يعنى ارتباط قيمة الوقت بقيمة العمل . فالوقت - بلا عمل - فراغ ، والعمل لا يمكن أن يتم إلا إذا كان هناك وقت لإنجازه. والفراغ فى حد ذاته يمكن أن يكون نعمة ، كما يمكن أن يكون نقمة . ومن أجل ذلك يقول النبى - عليه الصلاة والسلام - :

«نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ : الصِّحَّةُ والفَرَاغُ »[1] .

فالذى لا يستعملها فيما ينبغى وفيما خُلِقَا من أجله فقد ظلم نفسه . وبذلك تنقلب النعمة إلى نقمة . والإنسان قد أعطاه الله العقل ليميِّز به الخير من الشرِّ والنافع من الضار ، وهذا يعنى أن عليه أن يتحمل مسئوليته الإنسانية ، وأن يبذل أقصى الجهد لوضع كل شىء فى إطاره الصحيح، وذلك بالاستغلال الأمثل لأوقاته حتى ينعم بحياته على النحو الذى يليق بالإنسان .

* * *

(١) رواه البخارى فى كتاب الرقاق - باب (١) ، والترمذى فى كتاب الزهد - باب (١) .

## (١٦)
# قيمة الاحترام

من المفاهيم الشائعة فى أحاديثنا اليومية مفهوم الاحترام الذى نطلقه وصفاً لشخص أو رأى أو شعب من الشعوب ، فنقول : هذا شخص محترم ، وذاك رأى محترم ، وهذا شعب محترم ... إلخ . ولا شك أن الذى يدعونا إلى إطلاق هذا الوصف على هذا النحو هو ما نلاحظه من ميزة خاصة يمتاز بها هذا الشخص أو الرأى أو الشعب . وفى المقابل نطلق أوصافاً مضادة إذا كانت هذه الميزة مفقودة .

ومن الواضح أن قيمة الاحترام ترتبط بقيمة التقدير . فكونى أحترم إنساناً أو رأياً يعنى أننى أقدِّره وأعطيه حقه الذى ينبغى له من الاعتراف بقيمته . والاحترام من القيم الشاملة التى تتداخل مع العديد من القيم الأخرى فى حياتنا العامة والخاصة . ومحور هذه القيمة هو احترام الشخص لنفسه . فهذا الاحترام الذاتى هو المنطلق الأساسى لأى احترام آخر يُبديه هذا الشخص لغيره . فإذا كان هذا الاحترام للذات قائماً ومبنيًّا على أساس صحيح انعكس ذلك بصورة إيجابية على بقية المجالات ، أما إذا كان هذا الاحترام للذات مفقوداً فإن ذلك

سينعكس بطبيعة الحال بالسلب على تصوُّرات هذا الشخص إزاء أى فرد أو أى شىء آخر فى الحياة .

واحترام الشخص لذاته بوصفه عضواً فى المجتمع الإنسانى من شأنه أن ينسحب على احترامه للإنسان بصفة عامة من حيث هو إنسان كرَّمه الله واستخلفه فى الأرض بصرف النظر عن جنسه أو لونه أو معتقده ، وينطوى ذلك على احترام قيمة الحياة ذاتها التى لها حرمتها وحصانتها التى لا يجوز المساس بها . ومن هنا جعل الله الاعتداء على فرد واحد من أفراد الإنسانية بمثابة اعتداء على الإنسانية كلها كما أخبرنا بذلك القرآن الكريم . واحترام الإنسان لا يقتصر على حياته فقط ، بل يمتد إلى ما بعد مماته أيضاً - كما سبقت الإشارة إلى ذلك [1] .

وشمولية قيمة الاحترام تنبع من تداخلها الواضح فى كل مجالات حياتنا تأسيساً على احترام الذات . ثم ينسحب ذلك على احترام أقرب الدوائر إلينا وهى الأسرة كمؤسسة تُعَدُّ الخلية الأولى لكل مجتمع . واحترامنا للأسرة يبدأ باحترام الوالدين وتوقيرهما تقديراً للدور الذى يقومان به فى التربية والعناية المتواصلة والرعاية الدائمة للأطفال ، حتى يصلوا إلى المرحلة التى تؤهلهم للمشاركة فى تقدُّم المجتمع وإثراء الحياة. ولأهمية دورهما فى الحياة قرن الله سبحانه الإحسان إليهما

---

(١) انظر ص ٢٦ ، ١٦١ ، ١٩٠ .

بعبادته فى قوله تعالى : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ [1] . وفى نطاق الأسرة والمجتمع بصفة عامة يكون احترام الصغير للكبير لما يتمتع به الكبير - فى العادة - من خبرة طويلة وتجربة ناضجة ومعرفة واسعة بشئون الحياة . وتتسع الدائرة لتشمل احترام النظام العام فى الدولة واحترام القانون والالتزام بهما بوصفهما يحققان للمجتمع الأمن والاستقرار .

ويتصل بذلك كله احترام القيم الأخلاقية والدينية لأن هذه القيم تمثل صمام الأمان ومعايير التعامل بين الناس ، الأمر الذى من شأنه صيانة العلاقات الإنسانية من كل ما يعكِّر صفوها وإقامة التوازن فى المجتمع البشرى . وفى ذلك إعلاء للفضائل وابتعاد عن الرذائل وما تجرُّه على المجتمع من شرور وآثام .

ولا يقتصر الاحترام على الأشخاص فحسب ، بل يمتد إلى دوائر أخرى فى حياتنا . فالاحترام ينبغى أن يشمل احترام الحيوان بوصفه من مخلوقات الله ، وهذا يعنى التعامل معه من منطلق الرحمة والبعد عن القسوة والتعذيب والإيلام ، كما يشمل الاحترام البيئة بمعنى الحفاظ عليها وعدم العبث بها أو تلويثها بأى شكل من الأشكال ليتمتع بها الناس جميعاً ، كما يشمل الاحترام - بطبيعة الحال - احترام قدسية

---

(١) سورة الإسراء : ٢٣ .

الوطن واحترام العادات والتقاليد الإيجابية فى المجتمع والتى من شأنها أن تدفع إلى تقدُّم المجتمع ورقيِّه وازدهاره.

من كل ذلك يتضح لنا أن قيمة الاحترام إذا التزم بها المرء ووفَّاها حقَّها فإن ذلك يعنى التزامه بمجموعة كبيرة من القيم التى لها أثرها العميق فى حياة الأفراد والجماعات وفى رقيِّ المجتمع وتقدُّمه . ومن هنا فنحن فى أشد الحاجة إلى ترسيخ هذه القيمة فى نفوس أبنائنا وبناتنا إذا أردنا أن نساعدهم على المشاركة الجادَّة فى بناء مجتمع ينعم فيه الجميع بالخير والسعادة .

* * *

# (١٧)
# قيمة التعاون

ومن الأمثلة الشعبية التى تتردد كثيراً على الألسنة المثل المعروف: «**إيد لوحدها ما تسقّفش**» . أو بكلمات أخرى «**يدٌ واحدةٌ لا تصفِّق**» . والأمثال تعبِّر - فى العادة - عن خلاصة تجارب حياتية خَبِرَها الناس فلخَّصوها فى كلمات قليلة جرت على الألسنة ، وأصبح الناس يستشهدون بها فى أحاديثهم اليومية .

وكل مواطن بسيط يفهم ما يعنيه هذا المثل المشار إليه . إنه يعبِّر عن ضرورة التعاون بين الناس حتى يستطيعوا أن يحققوا ما يَصْبُون إليه من أهداف ، لأن الفرد لا يستطيع أن يحقق ذلك وحده ، تماماً كما أن اليد الواحدة لا تستطيع أن تصفِّق إلا إذا انضمَّت إليها اليد الأخرى .

وإن نظرة متأنية تبيِّن لنا صدق ذلك بوضوح تام فى كل أمور المجتمع من حولنا . فلو لم يتعاون الناس فيما بينهم على أمور حياتهم لما استطاعوا أن يأكلوا أو يشربوا أو يلبسوا أو يسكنوا أو يتمتعوا بأى نعمة فى هذه الحياة . فنحن - مثلاً - عندما نأكل نجد أن الطعام الذى

أمامنا قد وصل إلينا نتيجة جهد كبير بذلته أيد كثيرة وتعاونت على تجهيزه عناصر متعددة بدءاً من الفلّاح الذى زرع وتعهّد زراعته بالعناية والرعاية حتى حصد غرسه الذى هو نتيجة جهده وعرقه ، ثم تأخذ أيد أخرى هذا الحصاد لتعدّه إعداداً آخر عن طريق طحنه وخبزه ... إلخ .

فكلٌّ يقوم بجهد ضرورى ويؤدى دوراً يمثل حلقة لا غِنًى عنها فى العمل ، أى أنهم يتعاونون فيما بينهم فى سبيل دفع عجلة الحياة . ولو لم يتعاونوا لأصيبت الحياة بالشلل وتوقفت حركتها ، ومن أجل ذلك حثنا القرآن الكريم على التعاون فى قوله تعالى : ﴿ **وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ** ﴾[1] .

وقد أشارت هذه الآية إلى أن هناك نوعين من التعاون أحدهما تعاون مطلوب ، وهو التعاون فى كل وجوه الخير التى تعود على الأفراد والجماعات بالنفع والفائدة ، أما النوع الآخر فهو تعاون مرفوض وهو التعاون فى مجال الشرور والآثام . فالنوع الأول مطلوب لأنه يبنى ويعمِّر ، والثانى مرفوض لأنه يخرِّب ويدمِّر .

وعلى الرغم من وضوح هذه الأفكار البسيطة لكل مواطن فإننا - للأسف الشديد - لا نطبِّق هذه الخبرات فى أمور كثيرة فى حياتنا العملية . والسبب فى ذلك يرجع إلى تحكُّم الأنانية فى النفوس ، الأمر

---

(١) سورة المائدة : ٢ .

الذى يجعل الكثيرين لا يودُّون أن يعملوا مع غيرهم بروح الفريق . فكلٌّ يريد أن ينسب العمل إليه وحده . فهو وحده العبقرى صاحب الأفكار النيِّرة ، وغيره لا يستحق أن يشاركه فى ذلك ، أو هو - بالأحرى - غير جدير بهذه المشاركة . ويتضح ذلك فى مجالات مختلفة . وتصل الأنانية أحياناً فى مجال العمل والإنتاج إلى حد وضع العقبات أمام الآخرين حتى لا ينجحوا فى عملهم بدلاً من الأخذ بيدهم والتعاون معهم وكسبهم لمزيد من العمل المنتج . ولكن شهوة الاحتكار تكون أقوى من أى تعاون مثمر .

والأمر كذلك - للأسف الشديد - فى مجال الأبحاث العلمية ، حيث يفتقد المرء العمل بروح الفريق . ومن هنا لا نجد تقدُّماً يذكر . فالأبحاث تتكرر فى وقت واحد . ولو انضمَّت الجهود المتشابهة معاً لأمكن توفير الكثير من الوقت والجهد والمال ، ولأمكن الحصول على نتائج أفضل من شأنها أن تدفع إلى مزيد من البحث والابتكار .

والتعاون كما يكون بين الأفراد يكون أيضاً بين الدول والشعوب . فعالمنا العربى والإسلامى رغم ما يملكه من ثروات طبيعية هائلة إلا أنه ضعيف وفقير فى التعليم والصناعة ، وفى العلم والتكنولوجيا ، وفى الثقافة والقوة العسكرية وغيرها . وعقدة الأنا - وفى أحيان كثيرة آفة اللامبالاة - هى السبب وراء هذا الضعف على الرغم من أن التعاون فيما بينهم كفيل بأن يجعل منهم قوة لا يُستهان بها ، مما يُجبر الآخرين

على احترامهم والاستماع إلى وجهات نظرهم والاستجابة لمطالبهم العادلة .

وغياب التعاون الفعَّال على مستوى العالم الإسلامى أدى إلى ما نشهده اليوم من أحداث مأساوية تجرى على أرض فلسطين . فاللامبالاة التى يُبديها العالم إزاء ما يحدث فى فلسطين تُعَدُّ نتيجة طبيعية للضعف الواضح فى موقف العالم العربى والإسلامى الذى أصبح فى عالم اليوم أضيع من الأيتام فى مأدبة اللئام ، وأصبح حاله مثل حال المريض الذى يعرف تماماً علَّته ويعرف العلاج لهذه العلَّة ، ولكن ليست لديه الإرادة ليمدَّ يده لتناول العلاج . وهذا العلاج يتمثل فى التعاون والتنسيق والتكامل بين دوله وشعوبه . وهناك حديث شريف فى هذا الصدد حذَّر من الوصول إلى هذا الحدِّ من الضعف رغم كثرة العدد ، لأن العبرة ليست بالكَمِّ .

ونحن إذ ننبِّه إلى ذلك فإنما هو من باب النقد الذاتى - الذى كثيراً ما يتم تجاهله فى عالمنا العربى والإسلامى . والنقد الذاتى هو البداية الصحيحة لتفادى أى قصور وعلاج أى خلل . ولكننا فى الوقت نفسه لا نهدف إلى غرس اليأس فى النفوس . فالأمل لا يزال معقوداً على العقلاء فى كل أمة لتنوير الأذهان وتوعية العقول وارتياد الطريق من أجل انطلاقة جديدة تُعيد الأمور إلى نصابها الصحيح .

***

## (١٨)
# قيمة النظافة

من العبارات المحفوظة التى تتردد كثيراً على الألسنة عبارة «النظافة من الإيمان» . وتشتمل هذه العبارة على إشارة مهمة تتمثل فى جعل النظافة جزءاً لا يتجزأ من الإيمان ، الأمر الذى يجعلها ذات أهمية بالغة فى سلوك الإنسان ، لأنها بذلك لم تَعُدْ مجرد أمر مرغوب فيه أو متعارف عليه ، وإنما صارت - بالإضافة إلى ذلك - قضية إيمانية تتصل بالعقيدة المتأصِّلة فى النفوس ، وبذلك حصلت على دعم قوى من شأنه أن يظهر أثره فى السلوك بوضوح تام معبِّراً عن هذه القضية الإيمانية . وهذه العبارة المشار إليها تستند فى واقع الأمر على أسس دينية راسخة ، ومن هنا وجدنا النبى - عليه الصلاة والسلام - يجعل إزالة الأذى عن الطريق عنصراً من عناصر الإيمان فى قوله :

« الإِيمانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً : أَعْلَاهَا لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ » (١) .

---

(١) رواه مسلم فى كتاب الإيمان - باب (١٢) ، وأبو داود فى كتاب السُّنَّة - باب (١٤) .

وتأكيداً لذلك نجد الدين يأمرنا بالنظافة قبل الدخول فى الصلاة خمس مرات فى اليوم والليلة ، ويحرص على أن نأخذ زينتنا عند الذهاب إلى المسجد ، وهذا أمر يتطلب النظافة ، حتى لا يؤذى أحدٌ غيرَه فى المسجد برائحة كريهة أو ملابس غير نظيفة ، فيكون بذلك سبباً فى تنفير الناس من الذهاب إلى المساجد .

وإذا كان الأمر كذلك فى أمور الدين فمن باب أولى ينبغى أن ينعكس ذلك على سلوكنا اليومى فى الحياة . ومن هنا فإن من الضرورى تعويد أبنائنا وبناتنا فى سنٍّ مبكرة على النظافة وعلى عدم إلقاء أى مخلفات فى الشارع ، أو فى فناء المدرسة ، أو فى مكان العمل ، أو فى أى مكان آخر من شأنه أن يُسىء إلى المجتمع وإلى أفراده بأى شكل من الأشكال . والتعوُّد من الصغر على ذلك يجعل النظافة سلوكاً حياتيًّا لهم ، فمن شبَّ على شىء شاب عليه – كما هو معروف ، وبذلك تصبح العادة طبيعة ثابتة تجعل السلوك يصدر عن المرء دون تكلُّف .

وأذكر أننى فى منتصف الستينيات أثناء فترة الدراسة فى ألمانيا عدت إلى القاهرة فى إجازة قصيرة ، والتقيت ببعض الأصدقاء ، وانتقلنا بالتّرام من مكان إلى آخر ، وبعد مرور ما يقرب من ساعة من التجوال وجدتنى لا زلت مُطبقاً يدى على تذكرة التّرام . وتعجَّب الأصدقاء من احتفاظى بالتذكرة كل هذا الوقت . وكان ردِّى أننى طول هذا الوقت لم أجد مكاناً للقمامة لألقى بالتذكرة فيه . وكان ردُّ الأصدقاء – وهو الردُّ

المعتاد للأسف الشديد - « الشارع كله مملوء بالمخلَّفات فلماذا لا تُلقيها فى الشارع ؟ » .

ومن المناظر المألوفة التى تدل على سلوك متخلِّف أن نجد البعض مستقلًا سيارة فارهة آخر صيحة - والسيارة تُعَدُّ علامة حضارية - ولكنه أو من معه فى السيارة لا يجدون غضاضة فى فتح نافذة السيارة لإلقاء المخلَّفات فى الشارع ، وقد تكون قشرة موز تتسبب فى انزلاق مواطن ، وقد يترتب على ذلك بالنسبة له ما لا يُحمد عُقباه . وفضلاً عن ذلك فإن تراكم المخلَّفات فى الشوارع ، يجلب معه الذباب وبقية الحشرات التى تضرُّ الإنسان ، الأمر الذى يساعد على انتشار الأمراض وإنهاك صحة المواطنين . وهذا كله يؤثر - بالتالى - سلباً على قدرتهم على العمل والإنتاج فيخسر الوطن والمواطنون معاً . وبجهد قليل فى الحرص على النظافة يمكن تفادى ذلك كله .

والنظافة - بوصفها عنصراً من عناصر الإيمان - لا تقتصر على الجوانب المادية وحدها ، فكما تكون النظافة فى الأمور المادية تكون أيضاً فى الأمور المعنوية وفى الأخلاق . وهذا يعنى أن النظافة ليست أمراً ظاهريًّا فحسب ، وإنما هى مرتبطة أشد الارتباط بالجانب الأخلاقى للإنسان . فالإنسان الذى لا يكذب يوصف بأنه نظيف اللسان ، والذى لا يفحش فى القول ولا يغتاب غيره يوصف بأنه عَفُّ اللسان ، والذى لا يختلس من مال غيره أو من المال العام يوصف بأنه

نظيف اليد ، والإنسان الذى يتفق ظاهره مع باطنه يوصف بأنه نقىٌّ السريرة بعيدٌ عن النفاق ، إنه - إذن - صاحب صفحة نظيفة لم تتلطخ بما يُسىء إلى صاحبها أو يشوِّه سمعته . والمجتمع النظيف هو المجتمع الذى يخلو من الجرائم المادية والمعنوية .

ومن ذلك يتضح أن قيمة النظافة من القيم الحياتية الشاملة ، والتى بدونها لا يمكن أن نصف إنساناً أو مجتمعاً بأنه متحضِّر . فالحضارة ليست مجرد كلمة تقال أو مصطلحاً نتجمل به فى الحديث ، وإنما هى سلوك راقٍ له أثره على المستوى الفردى والاجتماعى . وكلٌّ مِنَّا فى موقعه مسئول عن تحقيق هذا السلوك الحضارى حتى يتيسَّر للناس أن يتمتعوا ببيئة نظيفة ماديًّا ومعنويًّا ، ويسعدوا بحياتهم فى مجتمع نظيف ، ويشاركوا بفاعلية فى تقدُّم وازدهار وطنهم فى جميع المجالات .

***

## (١٩)

# قيمة الصداقة

الإنسان كائن اجتماعى لا يستطيع أن يعيش وحده منعزلاً عن بنى جنسه من أفراد البشر . فالعزلة التامة عن الناس بالنسبة له مُميتة ماديًا ومعنويًا ، وما عرفه تاريخ الفلسفة والأدب من قصص تصوِّر عزلة كائن إنسانى عن دنيا الناس مثل قصة « حىٍّ بن يقظان » لابن طفيل ، و« روبنسون كروزو » لدانيال ديفو ، وغيرهما ، لا يخرج عن كونه تصورات خيالية لا تحقُّق لها فى دنيا الواقع .

إن الروابط الإنسانية بين البشر تُعَدُّ إكسيرَ الحياة . فالإنسان ليس مجرد مادة فحسب ، كما أنه ليس عقلاً فقط ، إنه – فضلاً عن ذلك – عواطف ومشاعر وأحاسيس ، فله حياة وجدانية لا يمكن إغفالها . وتتضح العلاقات بين الناس فى صور مختلفة . فقد تكون علاقة محبة أو أخوة ، وقد تكون صداقة ، وقد تكون صلة منافع أو مصالح مشتركة . أو غير ذلك من صور أخرى . ومن هنا تختلف درجات هذه الروابط بين البشر قوة وضعفاً .

ومن بين أسمى القيم التى تجمع بين الناس قيمة الصداقة . ولفظ «الصداقة » مشتق من « الصِّدق » . والصِّدق مناقض للكذب والغشِّ

والخداع وما شاكل ذلك . فالصداقة الحقيقية نزيهة ومجردة من كل شكل من أشكال الهوى والغرض ، إنها علاقة بريئة من أى أغراض جانبية ، تنبنى على عاطفة متبادلة تنشأ بين فردين على أساس من الاتفاق بينهما فى الميول .

وتتكون هذه العاطفة المتبادلة بالتدريج عن طريق المخالطة والمصاحبة . وتلعب الصداقة دوراً مهماً فى تطور شخصية الفرد وبخاصة فى مرحلة الشباب . وأساس هذه العلاقة الحميمة يتمثل فى الإخلاص والوفاء والأمانة . فالصديق ينبغى أن يكون مرآة صديقه يرى فيه نفسه . ومن شأن الصديق ألَّا يخدع صديقه كما لا يخدع نفسه . وعندما ينصحه فإن ذلك يكون من منطلق إخلاص كل منهما للآخر . ومن هنا قيل : « صَدِيقُكَ مَنْ صَدَقَكَ لَا مَنْ صَدَّقَكَ » .

فالصديق ليس مطلوباً منه أن يؤمِّن على كلام صديقه ويمتدح كل ما يصدر عنه من أفعال . فذلك يدخل فى باب النفاق والمجاملة المرذولة التى لا تتفق مع الصداقة التى جوهرها الصِّدق ، كما أنها ينبغى أن ترتبط بالعقل والحكمة . ونظراً لأن الصداقة تقوم على الاختيار والتفضيل فإنه ينبغى أن يختار المرء صديقه بعناية . فلا يجوز أن يركن إلى صديق أحمق ؛ لأن الصديق الأحمق يضرُّ صاحبه من حيث لا يشعر ، وقد يؤدى به إلى مهاوى الهلاك . ومن هنا قيل : «العدوُّ العاقل خيرٌ من الصديق الجاهل » . وكلنا يعرف قصة « الدبّة » التى قتلت صاحبها

بحجر كبير ألقته على وجهه لأنها أرادت أن تبعد بذلك ذبابة كانت تزعج صاحبها فى نومه .

ومن شأن الصديق ألَّا يتخلى عن صديقه فى أى ظرف من الظروف، فكما يجده بجواره فى السَّرَّاء لا يجوز له أن يتخلَّى عن صاحبه فى الضَّرَّاء. فالصديق يفرح لفرح صديقه ويحزن لحزنه ويقف بجواره فى كل المواقف . وليس من الوفاء للصديق التخلِّى عنه إذا كشَّرت له الدنيا عن أنيابها وأدارت له ظهرها . إن الصداقة تحتِّم فى هذه الظروف أن يقف الصديق بجوار صديقه ، لأن حاجته إليه فى هذه الحالة أشدُّ من حاجته إليه فى حال الرخاء . وأوقات الشدة تُعَدُّ المحكَّ أمام الأصدقاء ليتبيَّن للمرء من هو الصديق الحقُّ ومن هو الصديق الزائف . وفى ذلك يقول الشاعر :

جَزَى اللهُ الشَّدَائِدَ كُلَّ خَيْرٍ  عَرَفْتُ بِهَا عَدُوِّى مِنْ صَدِيقِى

فأوقات الشدة تُظهر معادن الرجال ، والصداقة عطاء متواصل متجدد ، فالصديق الحقُّ لا يتردد فى التضحية من أجل صديقه بكل غالٍ ورخيص فى حدود طاقته وما تتيحه له إمكاناته .

ولعل هناك من يرى أن الصورة المُثلَى التى نتصورها للصديق تكاد تكون بعيدة عن دنيا الواقع، بل تكاد تكون مستحيلة ، الأمر الذى جعل العرب قديماً يعتبرون « الخِلَّ الوفىَّ » من بين المستحيلات الثلاثة التى حصروها فى ( الغول والعنقاء والخِلِّ الوفىِّ ) .

ولكن ما قاله العرب قدياً قد يكون معبِّراً إلى حد كبير عن الحياة الآنية التى كانوا يعيشونها فى ذلك الزمان ، وليس معبِّراً عن تجربة إنسانية عامة تنطبق على كل الناس فى كل زمان ومكان . وقد شهدت أرض العرب ذاتها - على سبيل المثال - أسمى أنواع الصحبة والصداقة بين محمد ( ﷺ ) وأبى بكر ( رضى الله عنه ) وغيره من خيار الصحابة. فالصداقة الحقَّة - إذن - ليست وهماً أو خيالاً وإنما هى هدف يمكن تحقيقه إذا صدقت النوايا وصحَّت العزائم وتوفَّرت الإرادة . وهذا كله فى إطار طاقة الإنسان الذى يستطيع أن يحقق المعجزات .

* * *

## (٢٠)
# قيمة الشكر

من الأحاديث المروية عن النبى ﷺ قوله : « مَنْ لَا يَشْكُرِ النَّاسَ لَا يَشْكُرِ اللهَ »[١] . وهذا الحديث يلفت نظرنا إلى أن قيمة الشكر لها منزلة كبيرة وأهمية بالغة لدرجة أنها إذا لم تتحقق فى علاقات الناس بعضهم مع بعض فإنها - بالتالى - لا تتحقق فى علاقة الإنسان بالله .

وهذا الربط بين الموقفين - شكر الناس وشكر الله - يحتاج منا إلى وقفة نتأمل فيها هذه القيمة المهمة ودورها فى حياة الناس . صحيح أن هناك كثيرين لا يأبهون بهذه القيمة ولا يعيرونها كبير اهتمام . ولكنه من المعروف أن العلاقات بين البشر فى حاجة ماسَّة إلى دعم متواصل وتنشيط مستمر لتقوية أواصرها وترسيخ أركانها من أجل مزيد من التعاون والتضامن لتحقيق الخير للمجتمع الإنسانى. ولا يكلِّف هذا الدعم والتنشيط كثيراً فى معظم الأحيان . فالكلمة الطيبة لها أثرها العميق والفعَّال فى النفوس ، والكلمة الخبيثة من جانب آخر لها أثرها السلبى فى إحلال النفور بين الناس محلَّ الحب والإخاء .

---

(١) رواه أبو داود فى كتاب الأدب - باب (١١) ، وأحمد فى مسنده من حديث أبى هريرة .

والأمر الطبيعى أنه إذا حُيِّينا بتحية فينبغى أن نردَّ التحية على الأقل بمثلها أو بأحسن منها . وإذا أَسْدَى إلينا أحدٌ جميلاً أو قدَّم لنا خدمة معينة قولاً أو فعلاً فإن الواجب يقتضى أن نقدِّم له الشكر على ذلك أيضاً قولاً أو فعلاً حتى لو كان ما يقدمه لنا يقع فى دائرة مسئوليته المباشرة . ولهذا نسمع كثيراً فى مثل هذه المواقف - ردًّا على كلمة الشكر - عبارة : « لَا شُكْرَ عَلَى وَاجِب » . وهذا سلوك حضارى راقٍ ينبغى أن يسود بين الناس .

ولكن كثيراً ما يضنُّ الناس حتى بكلمة « الشكر » التى لا تكلِّفهم شيئاً فى مقابل ما يقدَّم لهم من خدمات ، ويستخدمون بدلاً من ذلك كلمات لا تعبِّر عن الشكر والامتنان الذى يؤكد الصِّلات بين الناس ، أو لا نسمع منهم شيئاً بالمرَّة ، أو نسمع ما يدل على النكران وعدم الاعتراف بالجميل . ومن هنا جاءت كلمات الحديث المشار إليه معبِّرة عن الربط بين شكر الناس وشكر الله لتبيِّن لنا مدى الأهمية البالغة التى يعلِّقها الدِّين على تحقيق السلوك الحضارى فى معاملات الناس بعضهم مع بعض .

إن الشكر يعنى الاعتراف بالفضل لأهل الفضل والثناء على المحسن بذكر إحسانه. وقد قرن الله فى القرآن الكريم الشكر له بالشكر للوالدين فى قوله تعالى : ﴿ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ ﴾ [1] . وهذا يبيِّن

(١) سورة لقمان : ١٤ .

لنا أن ما يقدِّمه الوالدان من فضل لأبنائهم وسهر على تربيتهم وعناء فى توفير الحياة الكريمة لهم أمر يجعله جديراً بأن يكون قريناً لشكر الله . فالله قد خَلَقَ ورَزَقَ ، والوالدان تَعِبَا وشَقِيَا فى العناية والرعاية لأبنائهم . وإذ نتذكر ذلك فإننا نَعْجَبُ لمظاهر العقوق ونكران الجميل والتنكر لكل ما صنعَ الوالدان لأبنائهم . وللعقوق صور مختلفة ، والصحف اليومية تطالعنا كثيراً بأخبار هذا العقوق الذى يصل أحياناً إلى حد القتل .

ويُقاس على شكر الوالدين الشكر للمعلِّمين الذين أسهموا فى تربية عقولنا وصياغة أفكارنا وتزويدنا بالعلم والمعرفة . وبدلاً من الشكر للمعلِّمين نجد مظاهر النكران للجميل فى أعمال البلطجة إزاء المعلِّمين فى بعض المدارس من جانب بعض التلاميذ ، مع أن رسالة المعلِّم تقترب من رسالة الأنبياء والمُرسَلين ، الأمر الذى دعا أمير الشعراء أحمد شوقى إلى القول :

قُمْ لِلْمُعَلِّمِ وَفِّهِ التَّبْجِيلَا  كَادَ المُعَلِّمُ أَنْ يَكُونَ رَسُولَا

ويدخل فى هذا الباب أيضاً الشكر للوطن على ما يقدِّمه من خدمات للمواطنين من خلال الدولة ، ولكن الشكر فى هذه الحالة يكون - بالدرجة الأولى - متمثلاً فى حماية الوطن من كل الأخطار التى قد يتعرض لها ، والدفاع عنه ، والحفاظ على المال العام ، والوفاء بالالتزامات المقررة على المواطنين ، مثل الالتزام بدفع الضرائب بالنسبة

لكل من عليهم التزامات ضريبية وغيرها من الالتزامات ، حتى تكون الدولة قادرة على تقديم المزيد من الخدمات للمواطنين فى مجالات التعليم والرعاية الصحية والرعاية الاجتماعية والخدمات المتنوعة .

وكما أن الشاكرين لنعمة الله يزيدهم الله من فضله كما وعد بذلك فى القرآن الكريم : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [1] فإن الشكر من جانب الإنسان للآخرين الذين أَسْدَوا إليه جميلاً من شأنه أن يشجِّع هؤلاء ويجعلهم أكثر رغبة فى فعل المزيد من الخير له ولأمثاله .

والشكر لا يعنى التقليل - بأى حال من الأحوال - من شأن الشاكر ، أو إشعاره بأنه أقل شأناً ممن يقدِّم لهم الشكر . إنه على العكس من ذلك يعنى أن الشاكر إنسان متحضِّر يدرك أهمية القيم الإنسانية فى حياة الناس وما لها من تأثير كبير فى تقوية الروابط الإنسانية بين البشر ؛ وبالتالى فى تقدُّم المجتمع وازدهاره .

* * *

(١) سورة إبراهيم : ٧ .

## (٢١)
# قيمة الانتماء

من بين القيم العديدة التى نتمنى أن تجد لها مكاناً بارزاً فى حياتنا الخاصة والعامة قيمة الانتماء . والانتماء يعنى الانتساب المقرون بالولاء والتقدير لمكان معين أو لجهة ما أو لشخص من الأشخاص أو لمؤسسة لها دور مهم فى حياتنا . فهناك - مثلاً - الانتماء للوطن ، والانتماء للمؤسسة التى يعمل فيها المرء ، والانتماء لمهنة من المهن، والانتماء للأسرة ، والانتماء لعقيدة من العقائد أو فكرة من الأفكار . ومن أجل ذلك نجد - مثلاً - أصحاب كل حرفة يشكِّلون فيما بينهم نقابة أو رابطة تربط بينهم ينتمون إليها ويحرصون عليها ويشعرون بالولاء لها .

ومن الواضح أن الانتماء ينبنى على أساس أن الجهة التى أنتمى إليها قد أَسْدَتْ لى صنيعاً ، وأنى مدين لها بالفضل والامتنان ، وأرى من واجبى أن أحفظ لها هذا الجميل وأردَّ لها هذا الدَّين . وكمثال على ذلك ما نشعر به من انتماء وولاء للوطن . فالوطن له فى القلوب منزلة عظيمة ومكانة فريدة . فهو المكان الذى ولدنا فيه وعشنا على أرضه ونعمنا بخيره وتنفَّسنا هواءه ، وهو الذى يحمل أغلى ذكرياتنا فى طفولتنا

وشبابنا وكهولتنا وحتى آخر لحظة فى حياتنا ، لا نرضى به بديلاً مهما كانت الأحوال ومهما تعرَّض لمحن وأزمات . وهذا ما دعا أمير الشعراء أحمد شوقى إلى القول :

بِلَادِى وَإِنْ جَارَتْ عَلَىَّ عَزِيزَةٌ وَأَهْلِى وَإِنْ ضَنُّوا عَلَىَّ كِرَامُ

ومن منطلق هذا الشعور الغامر بالحب والإعزاز الذى يشعر به كل مواطن نحو وطنه كان قول الرسول - عليه الصلاة والسلام - عندما هاجر من مكة إلى المدينة مخاطباً وطنه العزيز مكة : « واللهِ إِنَّكِ أَحَبُّ أَرْضِ اللهِ إِلَىَ نَفْسِى ، وَلَوْلَا أَنَّ قَوْمَكِ أَخْرَجُونِى مِنْكِ مَا خَرَجْتُ »[1]. وذلك على الرغم مما تعرَّض له فى وطنه مكة من ألوان الإيذاء والغدر والعدوان على يد مواطنيه المكِّيين الذين عفا عنهم جميعاً عندما عاد مرة أخرى إلى وطنه فاتحاً منتصراً .

والشعور بالانتماء للوطن والولاء له هو الذى يجعل المواطنين يهبُّون للدفاع عن الوطن ضد أى خطر يتهدده ، ويبذلون الدماء والأرواح فداء له ودفاعاً عن عزَّته وكرامته .

إن قيمة الانتماء للوطن - إذن - ليست مجرد كلمة تقال أو أغنية حماسية نرددها فى المناسبات ، وإنما هى فى حاجة مستمرة إلى ترجمة حقيقية لعمل ملموس يرفع من شأن الوطن ويُعلى من مكانته فى السلم

(١) رواه الإمام أحمد فى مسنده ، من حديث عبد الله بن عدى .

وفى الحرب على السواء . ومن هنا فإننا عندما نتحدث عن قيمة الانتماء للوطن فإن ذلك يتطلب منا أن نبرهن دائماً على هذا الانتماء بأدلة حقيقية . فإذا كان انتمائى للوطن يتطلب منى أن أحافظ عليه وأحميه من كل عدوان أو اعتداء على أرضه وسمائه ، فإننى مطالب بنفس القدر أن أحمى أرض هذا الوطن وسماءه من التلوُّث بأى شكل من الأشكال ، حتى ينعم المواطنون فيه ببيئة نظيفة .

وهذا يتطلب منا أن نربِّى أبناءنا وبناتنا على الحرص على نظافة شوارعنا فى مدننا وقرانا ، ونعوِّدهم على النظام والانضباط فى البيت وفى العمل وفى المدرسة ... إلخ ، ونغرس فى نفوسهم حب العلم والاستزادة منه والنبوغ فيه ، وننمِّى فيهم حب العمل من أجل خير الوطن والمواطنين ، وتقديم المساعدة للمحتاجين ، وحماية ممتلكات هذا الوطن وثرواته من أى عبث أو إفساد ، والضرب بشدة على يد كل من تسوِّل له نفسه أن يعبث بشىء من مقدَّرات هذا الوطن، كما ينبغى أن نحرص على سمعة الوطن وكرامته وأمنه واستقراره ، وعلى حماية المال العام ونظافة وسلامة كل المرافق العامة فى الدولة بوصفها ممتلكات للمواطنين جميعاً ، وذلك كله ما هو إلا تعبير عن الانتماء الحقيقى للوطن ، وترجمة صادقة للولاء والحب الذى تكنُّه القلوب للوطن .

ومن ذلك يتضح أن قيمة الانتماء للوطن قيمة شاملة لكل ما يتعلق بهذا الوطن من قريب أو من بعيد ، إنها تشمل كل ما يمكن أن يتصوَّره

المرء من جهود تُبذل لتقدُّم الوطن والمواطنين حتى تظلَّ رايته خفَّاقة عالية تمثل شموخ الوطن وعزَّة المواطنين .

وما يقال عن قيمة الانتماء للوطن يقال عن الانتماء للإنسانية بصفة عامة ، والانتماء للأسرة ، وللمهنة ، وللعقيدة ، وللفكرة التى يقتنع بها الإنسان ، وللمدرسة ، وللجامعة ، وللمؤسسة التى يعمل بها المرء . وكل هذه الانتماءات والولاءات تصبُّ فى النهاية فى نهر الانتماء للوطن فتزيده تدفُّقاً بالخير والتقدم والازدهار الذى يعود على الجميع بالحياة الحرة الكريمة والسعادة الغامرة والخير العميم . وفى ذلك فليتنافس المتنافسون .

❁ ❁ ❁

## (٢٢)
# قيمة التديُّن

لم يكن الدين فى يوم من الأيام - ولا يجوز أن يكون - دعوة إلى الانفصال عن الحياة والانعزال عن قضايا المجتمع ، وإنما « الدين للحياة» . وهذا ليس مجرد شعار يرفعه المتحدثون باسم الدين ، ولكنه برنامج عمل من أجل إثراء الحياة وترقيتها والنهوض بها فى جميع المجالات . وهذا أمر من شأنه أن يجعل من الدين محرِّكاً للطاقات وباعثاً للهمم ودافعاً للتقدم .

ولكن إدراك ذلك لا يتيسر لمن يفهمون الدين على أنه مجرد مظاهر وشكليَّات . فهؤلاء لا يفهمون من الدين إلا أنه مجموعة من الطقوس التى لا صلة لها بأمور الدنيا . ويقيسون تديُّنهم وتديُّن الآخرين بالحفاظ على بعض الشكليَّات . فالتقوى لدى البعض مرتبطة بمدى إطالة اللحية وتقصير الثياب وطول المسبحة والحفاظ على السِّواك وتَصنُّع الوَرَع وتكلُّف الجديَّة فى الكلام وفى التعامل ، والإكثار من استخدام لفظ الجلالة فى الحديث بمناسبة ودون مناسبة .. وقد شهدنا التأكيد على هذه الشكليَّات فى « هوجة » توظيف الأموال التى انتهت

بكارثة للمودعين الذين غرَّتهم المظاهر ومنحوا ثقتهم لأصحاب الشعارات التى لم تكن إلا تلاعباً بعقول الناس لابتزاز أموالهم تحت ستار من الدين .

أما جوهر الدين وارتباطه بعلاقة الإنسان مع الآخرين ومع المجتمع الذى يعيش فيه ، وترجمة قيم الدين إلى سلوك حياتىّ يظهر أثره فى تقدُّم الحياة وتطويرها ، وتشجيع العلم وتطبيقاته فى حياة الناس ، فهذه أمور لا تشغل بال هؤلاء الذين جعلوا من الدين جسداً بلا روح ولفظاً بلا مضمون .

إن الدين الحقيقى لا يأبه كثيراً بالشكليَّات ولا يعوِّل على المظهريَّات « فَاللهُ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَشْكَالِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ »[1] كما جاء فى الحديث الشريف . والتقوى محلُّها الصدر - كما ورد أيضاً فى المرويَّات النبويَّة ، وقد نظر عمر بن الخطاب إلى رجل مُظهر للنُّسُك مُتماوت فضربه بدِرَّته قائلاً : « لَا تُمِتْ عَلَيْنَا دِينَنَا أَمَاتَكَ اللهُ » .

وقد أكَّد النبى - عليه الصلاة والسلام - تأكيداً واضحاً لا لبس فيه على النوايا والسرائر حين قال : « إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى »[2] . ومن هنا فإن الحكم على الناس بالتقوى والورع أو فقدانها

(١) رواه مسلم فى كتاب البر والصلة والأدب - باب (١٠) ، ورواه ابن ماجه فى كتاب الجنائز - باب (١٧) .

(٢) رواه البخارى فى كتاب بدء الوحى - باب (١) ، ومسلم فى كتاب الإمارة - باب (٤٥) .

من خلال بعض المظاهر والشكليَّات حكم لا يستند إلى أساس صحيح من الدين ذاته . والإسلام لم يفرض نوعاً معيَّناً أو شكلاً محدَّداً لما يلبسه الناس من ثياب للتفريق بين المتديِّن وغير المتديِّن . إنه يطلب الاحتشام فحسب لكل من الرجل والمرأة على السواء . وهناك سُنن وردت عن النبى - عليه الصلاة والسلام - بعضها يدخل فى باب العبادات والبعض الآخر يدخل فى باب العادات . ولسنا ملزمين شرعاً بالسُّنن التى تدخل فى باب العادات . ومن ذلك العادات فى المأكل والمشرب والملبس والمسكن . والرسول ﷺ نفسه يقول : « كُلْ مَا شِئْتَ وَالْبَسْ مَا شِئْتَ »[1] ما دام الأمر بعيداً عن الإسراف والخُيَلاء .

إن الفهم الغائب عن أذهان الكثيرين بالنسبة للدين أنه عقيدة وشريعة وأخلاق وحضارة . وهذا الفهم الشامل للدين هو ما يقصد بعبارة : « **الدين للحياة** » . وإذا تحقق المرء بهذا المفهوم المتكامل للدين كان متديِّناً تديُّناً حقيقيًّا ، أما إذا غاب هذا الفهم للدين عن أذهان الناس أو اقتصر على بعض هذه العناصر دون البعض الآخر فإن تديُّنهم يكون تديُّناً قاصراً ومنقوصاً ، وعليهم أن يعملوا على تجنُّب هذا القصور وتلافى هذا النقص نظريًّا وعمليًّا .

إن التديُّن الحقيقى - الذى يُعَدُّ منظومة من القيم الراقية - يعنى استقامة السلوك من خلال ثلاث دوائر تشمل كل علاقات الإنسان فى هذا الوجود ، أولها : علاقة الإنسان بنفسه وتجريدها من كل خُلُق ذميم

---

(١) رواه البخارى فى صحيحه - كتاب اللباس - باب (١) .

وتزكيتها بكل خُلُق كريم . وقد عبَّر القرآن الكريم عن هذه الدائرة بقوله :

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ (١) .

أما الدائرة الثانية فهى دائرة علاقة الإنسان بالله ، وهذه العلاقة تُعَدُّ سرًّا بين المرء وربه لا يعرف حقيقتها إلا الله . ولكنها تتحقق بالالتزام الدينى بالمعنى الصحيح لهذا الالتزام ، أى : بجوهر الدين وما يشتمل عليه من تعاليم تهدف إلى سعادة الإنسان فى دنياه وأخراه . فإذا استقامت صلة الإنسان بنفسه وبالله انعكس ذلك بالإيجاب على علاقته بالناس فى الدائرة الثالثة .

ومن هنا قيل إن « الدين المعاملة » سواء كانت تعنى تَعامُله مع نفسه أو مع ربه أو مع الناس . فهى دوائر متداخلة ، والدين يشملها جميعاً . وهذا ما ينبغى أن يترسَّخ فى النفوس ، ويستقر فى القلوب ، وأن تدركه العقول لتنطلق إلى غرس الخير فى ربوع الحياة لينعم الناس بالسكينة ، يبنون ويعمِّرون وينشرون الحب والسلام فى كل مكان .

* * *

(١) سورة الشمس : ٧ - ١٠ .

## (٢٣)
# قيمة الوعى بالسُّنن الكونية

كان العرب قبل الإسلام إذا أراد الواحد منهم سفراً قام بإطلاق طير ، فإذا طار عن يمينه تفاءل وأعدَّ عُدَّته للسفر ، وأما إذا طار عن شماله فإنه يتشاءم ويُحجم عن السفر . وهناك فريق من الناس يميل إلى التشاؤم والإفراط فى سوء الظن ، ولا يرى إلا الجانب المظلم من الحياة، وهناك فريق آخر يميل إلى التفاؤل والإفراط فى حسن الظن ولا يرى إلا الجانب المضىء من الحياة .

والتشاؤم المفرط والتفاؤل المفرط يعنى أن صاحبه يرى الأشياء على غير حقيقتها ، حيث يتوهَّم أسباباً غير حقيقية تجعله يميل إلى هذا الجانب أو ذاك ، ويعنى - أيضاً - أن تصرُّف الإنسان ينبنى على اعتقادات خاطئة لا أساس لها . ومن أجل ذلك أبطل الإسلام هذه المعتقدات الفاسدة ، ووجَّه الإنسان إلى ضرورة اتخاذ الأسباب الحقيقية للوصول إلى الأهداف المنشودة بدلاً من توقُّف حياته وسلوكه على المصادفات التى لا تحكمها أية قوانين .

ومن هنا رفض النبى - عليه الصلاة والسلام - ما ذهب إليه بعض الصحابة من تفسير لكسوف الشمس يوم موت ولده إبراهيم حيث

قالوا : إن هذا الكسوف قد حدث مشاركة فى الحزن على موت إبراهيم. وقد ردَّ النبى ﷺ على ذلك فى حسم قاطع بقوله :

« إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَا يَنْكَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ ، وَلَكِنَّهُمَا آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللهِ ، فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُمَا فَقُومُوا فَصَلُّوا » . وقوله : « إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَا يَخْسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ ، وَلَكِنَّهُمَا آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللهِ ، فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُمَا فَصَلُّوا »[1] .

وعلى الرغم من رفض الإسلام القاطع للاستسلام لهذه الخرافات والأوهام والحث على الاعتماد على الأسباب الحقيقية ، فإنه لا يزال يشيع فى أوساط الناس خرافات مشابهة تعلِّق تصرُّف الشخص على أمور لا عقلية مثل قراءة الطالع أو الفنجان أو فكّ العمل أو تعليق الأحجبة أو استشارة أحد أولياء الله الصالحين الذى فارق دنيانا منذ قرون ، أو انتظاراً لضربة حظ قد تواتيه ، أو غير ذلك من أمور يرفضها العقل رفضاً قاطعاً ولا يقرُّها الدين بحال من الأحوال .

فقد منح الله الإنسان عقلاً يضىء له طريقه فى الحياة ، وبالعقل اهتدى الإنسان إلى العلم ، والعلم هو سبيل الإنسان إلى فهم الوجود وإدراك العلاقات الحقيقية التى تربط بين الأسباب والمسبَّبات . فنجاح الإنسان فى حياته لا يأتى عفواً ، ولا يُمنح للكسالى ، وإنما يعتمد - بالدرجة الأولى - على التخطيط السليم والعمل الجاد والجهد

(١) رواهما البخارى ومسلم فى صحيحيهما - كتاب الكسوف . انظر أيضاً ص ١٣٢ .

المبذول. فتلك هى المقوِّمات الحقيقية لبلوغ الأهداف المرجوَّة.

فلا محلَّ لتعليق تصرُّفات الإنسان على أسباب متوهَّمة، لا سند لها من العقل أو المنطق، ولا أساس لها من العلم أو الدين، ولا تليق بكرامة الإنسان الذى سخَّر الله له الكون كله. فالإنسان ليس ذرة تافهة فى هذا الوجود، وليس ريشة فى مهبِّ الريح تُميلها حيث تَميل، وإنما هو الذى يوجِّه أحداث التاريخ، وهو المُطالَب بالتجديد المستمر لحركة الحياة والتغيير إلى الأفضل.

والاعتقاد الخاطئ فى تأثير الأسباب المتوهَّمة يعنى أن الإنسان لا إرادة له ولا حرية ولا اختيار، وهذا بدوره يؤدى إلى سدِّ جميع منافذ الأمل فى حياة الإنسان.. وبدون الأمل لا يستطيع الإنسان أن يتقدم خطوة واحدة فى حياته. أو يتطور فى معارفه، وهذا يعنى توقُّف الحياة عن الحركة، وذلك ضد طبيعة الحياة ذاتها.

ولهذا مَنَحَنَا الله الأمل، وغرسَ فى نفوسنا الثقة فى القدرة على التغيير إلى الأفضل، وقد بيَّن لنا القرآن الكريم أن هذا التغيير لن يسقط علينا من السماء، وإنما يتعلَّق بإرادتنا ذاتها التى تملك هذا التغيير: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[1]. فقد أسند الله - سبحانه وتعالى - التغيير للإنسان، كما أسند إليه تزكية النفس أو إفسادها فى قوله تعالى:

---

(١) سورة الرعد: ١١.

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ (١) .

فلا مجال - إذن - فى حياة الإنسان لتعليق مجرى حياته على أشياء متوهَّمة ، أو أمور لا عقلية . إنه هو الذى يختار لنفسه ، حتى فى قضية الإيمان والكفر - كما جاء فى القرآن الكريم - :

﴿ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ (٢) .

ومن هنا فإنه لا يجوز أن يتعلل أحد بالركون إلى الأسباب المتوهَّمة التى تحدُّ من انطلاقه ، وتعوق تقدُّمه ، أو يتعلل بالقَضَاء والقَدَر لتبرير ما يصدر عنه من جرائم أو آثام ، بحجة أن هذه أمور مكتوبة على الإنسان فى الأزل لا يستطيع أن يتمرد عليها . فالمسئولية قائمة فى جميع الأحوال . وما كتبه الله على الإنسان فى الأزل ما هو إلا تسجيل لما سيصدر عن كل فرد منا بإرادته الحرة وباختياره الذى لا إكراه فيه . ومن هنا يتحمل الإنسان المسئولية كاملة عن كل فعل يصدر منه صغر هذا الفعل أم كبر :

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ (٣) .

وهذا يعنى أن الله عندما خلق الإنسان جعله صاحب إرادة حرة ، ورتَّب على ذلك مسئوليته الكاملة عن كل تصرُّفاته . وإذا كان الأمر

---

(١) سورة الشمس : ٩ ، ١٠ .

(٢) سورة الكهف : ٢٩ .

(٣) سورة الزلزلة : ٧ ، ٨ .

كذلك - وهو كذلك بالفعل - فلا يجوز للإنسان بأى حال من الأحوال أن يبنى حياته على خرافات تناقلها الناس جيلاً بعد جيل ، أو يربط مصيره بغيب لا يعلمه إلا الله ، الذى لم يُطْلِعْ عليه أحداً من خَلْقه إلا الرسل عليهم الصلاة والسلام - كما جاء فى القرآن الكريم - :

﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ... ﴾ (١) .

إن إرادة التغيير لدى الإنسان مرتبطة بإرادة الحياة ، وإرادة الحياة مرتبطة بالأمل ، والإنسان بما لديه من عقل وفكر قادر على تشكيل حياته بنفسه بشرط أن يتبع الأسلوب السليم فى التعامل مع الناس والأشياء .

* * *

(١) سورة الجن : ٢٦ ، ٢٧ .

# (٢٤)

# قيمة البشاشة [١]

لقد اختصَّ الله الإنسان من بين الكائنات كلها بميزات وخصائص ينفرد بها ، وتشكِّل عنصراً أساسيًّا فى حياته وتعاملاته مع الآخرين ، وعلى الرغم من أن الله قد خلق الناس مختلفين وجعلهم شعوباً وأُمماً لكل منهم خصائصه فإنه قد زوَّد الإنسان بقدرات تساعده على التفاهم مع الآخرين من أجل بناء مجتمع إنسانى ينعم فيه أفراده بالتعايش الإيجابى والأمن والاستقرار . وتشير إلى ذلك الآية الكريمة:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾ [٢] .

لكن هذا التعارف لا يمكن أن يحدث إلا إذا كان هناك استعداد لذلك لدى الأطراف المعنية ، ولا شك فى أن قسمات الوجه تعبِّر عن مدى استعداد أى فرد لتقبُّل الآخر أو رفضه . والبشاشة أو الابتسامة

---

(١) البشاشة – كما جاء فى القاموس المحيط – تعنى : طلاقة الوجه ، واللطف فى المسألة ، والإقبال على أخيك ، والضحك إليه ، وفرح الصديق بالصديق .

(٢) سورة الحجرات : ١٣ .

التى ترتسم على الوجه من شأنها أن تفتح الباب إلى هذا التعارف المأمول والتجاوب المنشود . أما إذا حلَّ العبوس والتجهُّم محلَّ الابتسام فإن ذلك يُعَدُّ إغلاقاً لباب التعارف وسدًّا لفرص التجاوب . والتعارف من شأنه أن يؤدى إلى التفاهم ، فالأرواح - كما جاء فى الحديث الشريف - « **جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ مَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ** »(١) .

ومن هنا وجدنا النبى ﷺ يحثُّنا على الابتسام والبشاشة فى وجوه الآخرين لما لذلك من أثر بالغ الأهمية فى النفوس ، وغرس لأواصر الألفة فى القلوب ولذلك يقول : « **تَبَسُّمُكَ فِى وَجْهِ أَخِيكَ صَدَقَةٌ** »(٢) . كما يقول - أيضاً - : « **لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئاً وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ** »(٣) أى : بوجه بشوش .

إن البشاشة فى وجوه الآخرين تعنى الانفتاح عليهم واحترام آدميتهم ، فضلاً عن أن صاحبها له أجره على ذلك عند الله سبحانه وتعالى .

---

(١) رواه البخارى فى كتاب أحاديث الأنبياء - باب (٢) ، ومسلم فى كتاب البر والصلة والأدب - باب (٤٩) .

(٢) رواه الترمذى فى كتاب البر والصلة - باب (٢٦) .

(٣) رواه مسلم فى كتاب البر والصلة والأدب - باب (٤٣) ، والترمذى فى كتاب البر والصلة - باب (٤٥) .

إن مجرد الابتسامة فى وجوه الآخرين - والتى لا تكلِّف شيئاً - لها وزن كبير وأهمية بالغة لما يترتَّب عليها من آثار . ومن خبراتنا البشرية اليومية أننا عندما نبدأ يومنا ونجد البِشْر على الوجوه فإن ذلك يكون له مردود إيجابى على أعمالنا ، إذ يجعلنا نُقبل على العمل بهمَّة ونشاط ، وننجز مصالح الناس بسرور ، وبذلك نسهم فى دفع عجلة الحياة وتقدُّم المجتمع .

أما الوجه الآخر فإنه يتمثل فى العبوس والتجهُّم وتصنُّع الجديَّة ، والبعض ينعل ذلك ظنًّا منه أنه من قبيل تقوى الله والوقار المصاحب لذلك . والواقع أنه بهذا التجهُّم والعبوس يُسيء إلى نفسه لأنه بذلك يتسبب فى نفور الناس منه . ويُسيء إلى الآخرين لأن مجرد رؤيتهم للوجه العابس المتجهِّم تصيبهم بشيء من الكآبة يعكِّر عليهم صفو يومهم ويصدُّهم عن العمل ويصرفهم عنه . وربما تسرى عدوى هذا العبوس إليهم فيتعاملون مع الآخرين على هذا النحو السلبى الذى يقطِّع أوصال العلاقات بين الناس ، ويؤثر سلباً على المجتمع بأسره .

ولم يُعرف عن رسول الله ﷺ أنه كان عابساً متجهِّماً ، بل على العكس من ذلك . فالأحاديث التى يرويها أصحابه عنه ﷺ تؤكد أنه كان يمازح أصحابه ويخالطهم ويحادثهم ، وكان لا يواجه أحداً فى وجهه بشيء يكرهه ، وكان دائم البِشْر سهل الخُلُق ، ليِّن الجانب . ويروى أَنَسُ بن مالك « أَنَّهُ خَدَمَ النَّبِيَّ عَشْرَ سِنِينَ فَمَا عَبَسَ النَّبِيُّ فى

وَجْهِهِ أَبَداً »[1] . وتروى السيدة عائشة أن النبى ﷺ كان فى بيته ألين الناس ، بسَّاماً ضحَّاكاً . وكان يحنو على الكبير والصغير ، وقد رآه أحد الصحابة ( الأقرع بن حابس ) يقبِّل الحسين فقال : إن لى عَشَرَةً من الولد ما قبَّلتُ منهم أحداً . فنظر إليه رسول الله ﷺ وقال : « مَنْ لَا يَرْحَمْ لَا يُرْحَمْ »[2] .

ويروى عنه أبو الدرداء أنه لم يكن يُحدِّث حديثاً إلا تبسَّم . ويقول أبو أمامة - رضى الله عنه - أنه ﷺ كان من أضحك الناس وأطيبهم نفساً .

ويطول بنا الحديث لو تتبعنا سيرته - عليه الصلاة والسلام - مع كل مَنْ تعامل معه من أصحابه أو أهل بيته .

ومما سبق يتضح لنا أن الإسلام يكره العبوس والتجهُّم وتصنُّع الجديَّة . فالحياة - مهما امتلأت بالصعوبات والمشقَّات - فإن الأمل والبِشْر والابتسام تساعد على تجاوز العقبات وتخطِّى الصعاب وإيجاد الحلول للمشكلات .

***

(١) رواه مسلم فى كتاب الفضائل - باب (١٢) .
(٢) رواه البخارى فى كتاب الأدب - باب (١٨) .

## (٢٥)
# قيمة الأمل

لسنا نعدو قول الحق إذا قلنا إن الأمل يُعَدُّ شريان الحياة . فالحياة – بلا أمل – حياة فارغة لا معنى لها ، بل يمكن القول بأنها والموت صنوان . فالأمل هو الذى يجعل الإنسان يحب الحياة ويعمل من أجلها لخير نفسه وخير مجتمعه ولترقية الحياة ذاتها وإثرائها .

والدين من شأنه أن يغرس الأمل فى النفوس . ومن هنا يرتبط الإيمان بالأمل ارتباطاً وثيقاً ويشكّلان وحدة واحدة . فالمؤمن لا يمكن أن ييأس أو يصاب بالإحباط والقنوط أو يتسرَّب القلق إلى نفسه ، لأنه يثق فى الله وفى عدله وفى رحمته ، وأنه لا يُضيع أجرَ مَنْ أحسنَ عملاً . فالله أرحم بعباده الذين خلقهم من الأم بولدها . ولذلك يرزق المؤمن والكافر . ولكنه يُمهل الظالم ولا يُهمل عقابه إنْ عاجلاً أو آجلاً .

ويؤكد القرآن الكريم أن المؤمن لا يعرف اليأس : ﴿ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ (١) . ومن ذلك يتضح أن الأمل

(١) سورة يوسف : ٨٧ .

يُعَدُّ نتيجة طبيعية للإيمان ، ومن هنا فإنه نعمة كبرى ومنَّة إلهية ، ورحمة من عند الله لعباده . فلولا الأمل « ما أرضعتْ أمٌّ ولداً ولا غرسَ غارسٌ شجراً » كما جاء فى بعض الأحاديث النبوية .

والله يفتح للمذنبين الذين أسرفوا على أنفسهم باب الأمل فى التوبة على مصراعيه . وهذا ما يؤكد عليه القرآن الكريم فى قوله تعالى :

﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (١) .

وزيادة فى مدِّ حبال الأمل لمن يتسرب اليأس إلى قلوبهم يعلن الرسول ﷺ أن الإنسان من شأنه أن يخطئ . والخطأ فى حدِّ ذاته ليس عيباً ، ولكن الإصرار على الخطأ هو الذى يُبعد الإنسان عن الله ؛ فـ «كُلُّ بَنِي آدَمَ خَطَّاءٌ ، وَخَيْرُ الخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ » (٢) كما يقول النبى عليه الصلاة والسلام .

وتشجيعاً لهم على التوبة وعدم فقدان الأمل يخبرنا القرآن الكريم بأن الله يحب التوَّابين ، ويخبرنا الحديث النبوى بأن الله يفرح بتوبة عبده . وهذا كله يبيِّن لنا - بما لا يدع مجالاً للشك - أن باب الأمل مفتوح لا يُغلق أبداً . وهذا من شأنه تأكيد الثقة فى الله وفى عدله

---

(١) سورة الزمر : ٥٣ .

(٢) رواه ابن ماجه فى كتاب الزهد - باب (٢٠) .

وإحياء الأمل فى النفوس وإنعاشها بالرجاء فى الاستجابة .

ومن أجل ذلك يحطِّم الدِّين كل الحواجز التى تفصل بين الله والإنسان . فالله قريب من الإنسان يجيب دعوة من يدعوه ، بل هو أقرب إليه من حبل الوريد ، ولذلك يطلب الله من الإنسان أن يدعوه مباشرة دون وساطة : ﴿ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ (١) . كما يقرِّر القرآن ذلك فى وضوح لا لبس فيه .

ويمتدُّ هذا الأمل مع الإنسان المؤمن بالله إلى آخر لحظة فى حياته . ولذلك يحثُّ النبى ﷺ المؤمنين على أن يفعلوا الخير حتى آخر نَفَس فى حياتهم ، حتى ولو قامت الساعة ، ما دام الإنسان فى موقف يستطيع من خلاله أن يقدِّم شيئاً . ويعبِّر عن ذلك الحديث النبوى :

« إِذَا قَامَتِ السَّاعَةُ وَفِى يَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ فَإِنِ اسْتَطَاعَ أَلَّا يَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَفْعَلْ » (٢) .

إن التمسُّك بالأمل هو فى حد ذاته تمسُّك بالحياة ، وهو فى الوقت نفسه ثقة تملأ جوانب النفس الإنسانية ، وتُشعر الإنسان بأنه يستطيع أن يتغلب على كل ما يعترضه من صعاب ؛ لأن الأمل يمدُّ الإنسان بأسباب القوة للتغلُّب على كل العقبات .

---

(١) سورة غافر : ٦٠ .

(٢) رواه الإمام أحمد فى مسنده ، من حديث أنس بن مالك .

إننا مدعوُّون إلى التمسُّك بالأمل والإقبال على الحياة ، وألَّا ننظر إليها بمنظار أسود يرى - فقط - نصف الكوب الفارغ ولا يرى النصف الآخر المملوء . إن حياتنا ليس لها وجه واحد ، ففيها الخير وفيها الشر أيضاً ، وفيها جوانب إيجابية وأخرى سلبية . فلنغلِّب الجانب الإيجابى الذى هو دائماً جانب الأمل حتى نستطيع - بسلاح الأمل - أن نتغلَّب على الجوانب السلبية فى الحياة . فبالأمل والإصرار عليه وبالإرادة القوية يستطيع الإنسان أن يُملى إرادته على دنيا اليأس والإحباط .

وقد عبَّر إيليا أبو ماضى فى قصيدته الشهيرة « فلسفة الحياة » عن عبثية النظرة التشاؤمية للحياة بقوله :

إِنَّ شَرَّ الجُنَاةِ فى الأَرْضِ نَفْسٌ
تَتَوَقَّى قَبْلَ الرَّحِيلِ الرَّحِيلَا
وَتَرَى الشَّوْكَ فى الوُرُودِ وَتَعْمَى
أَنْ تَرَى النَّدَى فَوْقَهَا إِكْلِيلَا
وَالَّذِى نَفْسُهُ بِغَيْرِ جَمَالٍ
لَا يَرَى فى الوُجُودِ شَيْئاً جَمِيلَا

* * *

## (٢٦)

# قيمة الترويح عن النفس[١]

فى ختام هذه المجموعة من القيم المهمة فى حياتنا لابد لنا من أن نشير إلى أنه إذا كان الدين يلفت نظرنا إلى منظومة القيم الأخلاقية لنهتدى بها فى حياتنا ، ونسير فى ضوئها ، ونعمل بمقتضاها حتى تستقيم حياتنا فى الدنيا والآخرة ، فإن الدين فى الوقت نفسه لا يريد أن يفهمه الناس على أنه دعوة إلى رفض الترويح عن النفس ، أو معاداة التمتُّع بطيِّبات الحياة وخيراتها . فالدين - على النقيض من ذلك - يدعو الناس إلى الابتهاج والبِشْر والسرور ، لأن ذلك من شأنه أن يساعدهم على تحمُّل أعباء الحياة والنهوض بمسئولياتها .

إن الإسلام دين ينظر إلى الإنسان نظرة واقعية : فالإنسان من ناحية

(١) نحن ندرك أن هناك كثيرين سوف يعترضون على جعل الترويح عن النفس قيمة تندرج ضمن القيم التى تحدثنا عنها فى الصفحات السابقة ، ويرون أنها مقحمة بين القيم بلا مبرر ، وأنها هنا فى غير مكانها . فالقيم لها طابع جاد ، أما الترويح عن النفس فهو شىء غير ذلك تماماً . ونحن نتفهم وجهة النظر هذه ونحترمها ، ومن هنا نبادر إلى القول بأننا ننظر إلى الترويح عن النفس لا على أنه قيمة فى ذاته ، وإنما على أنه قيمة مساعدة من شأنها أن تُعين الإنسان على تحمُّل أعباء ومسئوليات الحياة التى لا تستقيم بدون القيم فى شتَّى صورها الدينية والأخلاقية والعقلية والجمالية . وقد سبق بيان الفرق بين القيم المطلقة والقيم النسبية أو الوسيلية ( انظر ص ١٤٤)، وتندرج القيم المساعدة ضمن هذه المجموعة الأخيرة .

ليس مَلَكاً أو روحاً خالصاً ، ولكنه من ناحية أخرى ليس حيواناً يسير بلا عقل وراء شهواته وملذّاته . إنه إنسان ذو طبيعة مزدوجة تجمع بين المادة والروح ، وقد خلقه الله على هذا النحو ، وكلّفه بعمارة الأرض وصنع الحضارة فيها ، وأباح له التمتُّع بطيِّبات الحياة ومباهجها . والإسلام - بوصفه دين الفطرة - جاء لمصلحة الإنسان ومن أجل خيره وسعادته فى دنياه وأخراه . وهذا يعنى أنه لا يمكن أن يتعارض مع الفطرة الإنسانية التى فطر الله الناس عليها ، أو يتناقض مع رغبات الإنسان المشروعة .

فالتمتُّع بطيِّبات الحياة من المأكل والمشرب والملبس والمسكن ، والاستجمام من عناء العمل ، والترفيه المقبول عن النفس ، وغير ذلك من مباهج الحياة وخيراتها - أمور تتفق جميعها مع الطبيعة الإنسانية ، ولا تتعارض مع الدين بأى حال من الأحوال . فالدين فى كل تعاليمه يراعى الطبيعة البشرية ولا يتصادم معها ، ويحترم المشاعر الإنسانية ، ولا يتجاهلها .

وطيِّبات الحياة ومباهجها من نعم الله على الإنسان التى تستحق الشكر عليها . وفى هذا المعنى يقول الشيخ محمد الغزالى - رحمه الله - : « أنا رجل مسلم أحبُّ الحياة ، وأبتهج بطيِّباتها . إن الله استضافنى فى كونه وأطعمنى خيره . فمن السَّفاهة أن أرفض الكرم المبذول ، ومن السَّفاهة كذلك أن أضنَّ بشكر المُنْعِم »[1] .

(١) الشيخ محمد الغزالى : مائة سؤال عن الإسلام ( ج ١ ص ١٧٢ ) - القاهرة ١٩٨٣م .

والإسلام عندما يدعو الإنسان إلى العمل الصالح والتقرب إلى الله، فإنه يدعوه فى الوقت نفسه - أيضاً - إلى الترويح المقبول عن النفس، كما جاء فى الحديث النبوى الشريف : « **رَوِّحُوا الْقُلُوبَ سَاعَةً فَسَاعَةً**»[1] ، أى : أريحوها باللهو المباح حتى تنشط استعداداً لاستئناف العمل من جديد . فالقلوب تصاب بالملل والسَّأم كما هو الشأن كذلك بالنسبة للأبدان - كما ورد أيضاً عن الإمام علىّ كرَّم الله وجهه : والقلوب إذا كلَّت عَمِيَتْ . ومن أجل ذلك فإنها فى حاجة ماسَّة إلى الترويح الذى يزيل عنها هذا الملل ، ويبعث فيها الحيوية والنشاط من جديد .

ويروى فى ذلك عن الصحابى الجليل أبى الدرداء قوله : إنى لأجمُّ فؤادى - أى : أُريحه - ببعض الباطل ، أى : بشىء من اللهو الجائز ، لأنشطَ للحق . وقد ذُكر عند النبى ﷺ القرآن والشعر ، فجاء أبو بكر - رضى الله عنه - وأبدى استنكاره قائلاً : أَقُرآنٌ وشِعْرٌ ؟ فقال : **نَعَمْ ، سَاعَةً هَذَا وَسَاعَةً ذَاكَ** [2] . كما يروى أيضاً أن أبا بكر دخل على ابنته عائشة أم المؤمنين - رضى الله عنها - وكان يوم عيد ، وعندها جاريتان تغنِّيان بما تقاولت به الأنصار يومَ بُعَاث ، فقال: «**أَمَزَامِيرُ**

---

(١) رواه الإمام مسلم فى صحيحه .

(٢) راجع : فيض القدير للمناوى ( ج٤ ص ٤٠ وما بعدها ) دار المعرفة - بيروت ١٩٧٢م .

الشَّيْطَانِ فِى بَيْتِ رَسُولِ اللهِ ؟ » فقال النبى - عليه الصلاة والسلام - : «يَا أَبَا بَكْرٍ ، إِنَّ لِكُلِّ قَوْمٍ عِيداً وَهَذَا عِيدُنَا » (١) .

ومن هنا يستنكر القرآن الكريم ما يذهب إليه البعض من تحريم التمتُّع بطيِّبات الحياة ومباهجها ، ويرفض أن يعطى أحدٌ لنفسه الحق فى تحريم ما أحلَّه الله لعباده . ويعبِّر القرآن الكريم عن ذلك بقوله :

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِى أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ (٢) .

والمعروف لدى علماء الشريعة الإسلامية أن الأصل فى الأشياء هو الحِلُّ ، وأنه ليس هناك تحريم لشىء إلا بنصٍّ قاطع . فالقضية هنا ليست قضية اجتهاد يقول فيها كلٌّ برأيه الشخصى واجتهاده الخاص . ومن أجل ذلك يَنْهَى القرآن الكريم نهياً صريحاً لا لبس فيه عن تحريم ما أحلَّه الله لعباده من طيِّبات الحياة قائلاً :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ (٣) .

إن الإسلام دين للحياة بكل أبعادها . والحياة متعددة الجوانب متنوعة الوجوه . وكما أن إشباع الجانب الروحى ضرورى ومطلوب فإن إشباع الجانب المادى ضرورى أيضاً ومطلوب . ومن أجل ذلك

(١) رواه الإمام البخارى فى صحيحه .
(٢) سورة الأعراف : ٣٢ .
(٣) سورة المائدة : ٨٧ .

يدعو القرآن الكريم إلى ضرورة إقامة التوازن بين دنيانا وأخرانا دون أن نغلّب جانباً على حساب الجانب الآخر بشكل يخلُّ بهذا التوازن المنشود . وفى ذلك يقول القرآن الكريم :

﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾[1] .

وفى ضوء هذا التعليم القرآنى جاء القول المأثور : « اعْمَلْ لِدُنْيَاكَ كَأَنَّكَ تَعِيشُ أَبَداً ، وَاعْمَلْ لآخِرَتِكَ كَأَنَّكَ تَمُوتُ غَداً » . وقد كان النبى ﷺ مع شدة قربه من الله تعالى لا يحرِّم على نفسه شيئاً من طيِّبات الحياة.

ومن كل ذلك - وغيره كثير - يتضح لنا أن معاداة الدنيا وطيِّباتها ومباهجها ليست من الدين فى شىء . ومن هنا ندرك معنى قول النبى ﷺ : « إِنَّ اللهَ يُحِبُّ أَنْ يَرَى أَثَرَ نِعْمَتِهِ عَلَى عَبْدِهِ »[2] .

❊ ❊ ❊

(١) سورة القصص : ٧٧ .

(٢) رواه الترمذى .

# قائمة بأهم الأعمال العلمية للمؤلف

**أولاً : مؤلفات بالعربية :**

١ - تمهيد للفلسفة ( الطبعة الخامسة ) - دار المعارف - القاهرة .

٢ - المنهج الفلسفى بين الغزالى وديكارت ( الطبعة الرابعة ) - دار المعارف - القاهرة .

٣ - الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضارى - دار المعارف - القاهرة .

٤ - الدين والفلسفة والتنوير ( سلسلة اقرأ ) - دار المعارف - القاهرة .

٥ - الدين والحضارة ( سلسلة اقرأ ) - دار المعارف - القاهرة .

٦ - الإسلام فى مواجهة حملات التشكيك ( سلسلة اقرأ ) - دار المعارف - القاهرة .

٧ - دراسات فى الفلسفة الحديثة - دار الفكر العربى - القاهرة .

٨ - مدخل إلى الفكر الفلسفى ( مترجم عن الألمانية ) - دار الفكر العربى - القاهرة .

٩ - مقدمة فى علم الأخلاق - دار الفكر العربى - القاهرة .

١٠ - الإسلام فى مرآة الفكر الغربى - دار الفكر العربى - القاهرة .
١١ - الإسلام فى عصر العولمة - مكتبة الشروق - القاهرة .
١٢ - الحضارة فريضة إسلامية - مكتبة الشروق - القاهرة .
١٣ - هموم الأمة الإسلامية - دار الرشاد ومكتبة الأسرة - القاهرة .
١٤ - الإسلام والقيم فى التصور الإسلامى - دار الرشاد - القاهرة .
١٥ - ثلاث رسائل فى المعرفة للإمام الغزالى ( تحقيق ودراسة ) - مكتبة الأزهر - القاهرة .
١٦ - الإسلام فى تصورات الغرب - مكتبة وهبة - القاهرة .
١٧ - مقدمة فى الفلسفة الإسلامية - المعهد العالى للدراسات الإسلامية - القاهرة .
١٨ - الإسلام والغرب - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - القاهرة.
١٩ - الإسلام وقضايا العصر - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - القاهرة .
٢٠ - من أعلام الفكر الإسلامى الحديث - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - القاهرة .
٢١ - الإسلام وقضايا الإنسان - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - القاهرة .
٢٢ - الإنسان فى التصور الإسلامى - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - القاهرة .

٢٣ - قيم منسية - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - القاهرة .

٢٤ - الإسلام وقضايا الحوار - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - القاهرة .

٢٥ - بحوث ودراسات فى ضوء القرآن الكريم - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - القاهرة .

**ثانياً : مؤلفات باللغات الأجنبية :**

**١- فى اللغة الألمانية :**

ثلاثة كتب هى :

- فلسفة الغزالى مع مقارنتها بفلسفة ديكارت .
- مدخل إلى الإسلام .
- قضايا حول الإسلام .

وذلك بالإضافة إلى اثنى عشر بحثاً منشورة فى ألمانيا والنمسا .

**٢- فى اللغة الإنجليزية :**

ترجمة لكتاب : الإسلام فى مواجهة حملات التشكيك .

وثلاثة بحوث مترجمة إلى الإنجليزية منشورة فى القاهرة وبرمنجهام (إنجلترا ) والنمسا، وهى على التوالى :

- دور الإسلام فى تطور الفكر الفلسفى .
- الصلات الثقافية بين العالم الإسلامى والغرب .

- السلام فى نظر الإسلام .

**٣ - فى اللغات الفرنسية والروسية والتايلاندية والقازاقية :**

ترجمة لكتاب : الإسلام فى مواجهة حملات التشكيك .

**٤ - فى اللغتين التركية والإندونيسية :**

ترجمة لكتاب : الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضارى .

**٥ - فى اللغة البوسنية :**

ترجمة لكتاب : فلسفة الغزالى مع مقارنتها بفلسفة ديكارت .

**٦ - فى لغات أخرى :**

وبالإضافة إلى ذلك تم ترجمة بعض البحوث التى ألقيت فى بعض المؤتمرات فى أوربا إلى الفرنسية والإسبانية والإيطالية والأوردية ، وهى على التوالى :

- قضية الحوار بين الأديان السماوية الثلاثة .
- إسهام الإسلام فى صنع ثقافة السلام .
- التوحيد والنزاع فى نظر الإسلام .
- السلام فى نظر الإسلام .

**ثالثاً : مساهمات فى أعمال علمية أخرى :**

- ترجمة لكتاب ( بوخنسكى : مدخل إلى الفكر الفلسفى ) من الألمانية إلى العربية - دار الفكر العربى - القاهرة .

- والاشتراك فى ترجمة كتاب (بروكلمان: تاريخ الأدب العربى) إلى اللغة العربية .

- ومراجعة على النص الألمانى لترجمة د. إمام عبد الفتاح إمام للجزء الخاص بالعالم الشرقى من كتاب « فلسفة التاريخ » لهيجل .

* * *